

# من نقد السماء الى نقد الأرض



<http://www.yassar.freesurf.fr>  
yassarweb@gmail.com

# من نقد السماء إلى نقد الأرض

العفيف الأخضر

- 1 - مقدمة
- 2 - أين وصلت المسألة الدينية في الغرب ؟
- 3 - من نقد اللاهوت إلى نقد الإستبداد البيروقراطي
- 4 - موقف الستالينية العربية من الدين ؟
- 5 - ما زالت السلطة العربية تحرق البخور لمزابل تراثنا
- 6 - صراع الطبقات في العصر العباسي
- 7 - موقف الشيوعية العربية الأولى من الدين ؟



أيها الغر فقد خصصت بعقل فاسألنه، فكل عقل نبي.  
(أبو العلاء المعري)

## I مقدمة

لا أطمح بهذا التقديم إلى الأجابة عن أسئلة ما زالت معلقة حول الدلالة التاريخية لظهور الإسلام، حول الفئات والتشكيلات التي عبر عن مصالحها، حول معنى الصراعات الفكرية- الإجتماعية والحروب الأهلية التي دارت رحاها على إمتداد قرون تحت رايته، حول الأنظمة والمدارس المتباينة بله المتناحرة التي ادعت كلها نسبا إليه، حول خصوصياته كدين، من الفه إلى يائه، شرقي، حول مقارنته بالمسيحية واليهودية المعقلنتين، و حول الأسباب العميقة لظهور وسقوط بعض الأنظمة التي ولدت تحت سمائه، و حول وضعه الراهن ؛ متعهدا بمحاولة الإجابة عن كل ذلك في كراس قادم. ولكن هذا التحفظ لا يعنى أننى لن أمس الآن هذه أو تلك من اشكالات التاريخ الإسلامى الوسيط والحديث وبخاصة الحركات الشيوعية فى القرنين الثالث و الرابع.

كل ما أطمح إليه من هذا التقديم هو مساعدة قراء هذا الكتاب الثمين\* على قراءته قراءة نوعية تستلهم من نقد لينين لأوضاع روسيا ومبرريها سلاحاً لنقد أوضاعنا الراهنة ومبرريها وعلى رأسهم القيادات "اللينينية" العربية التي تشبه "الفجل حمراء من الخارج وبيضاء من الداخل" (لينين)، استعداداً لنقدها ونقدمهم بالسلاح.

\* \* \*

من مفارقات تاريخنا الحديث، وهى تستعصي على العد، أن هذا الشرق الذى ولد فيه الدين لم يلد فيه، فى تاريخه الحديث، نقد الدين. لأن الطبقات الصاعدة التى تجرأت على نقد الدين فى تاريخ أوروبا الحديث لم يعرفها تاريخنا الحديث إلا كطبقات مجهزة تخشى النقد والثورة أكثر مما يخشاهما رجال الدين ورجال الدولة أنفسهم.

\* \* \*

ساد فى العصور الأوربية الوسطى ثلاثي الله، الملك والعالم فى وحدة لا فكاك لها. على امتداد هذه العصور وعلى قامة هذا الثلاثي نمت المعارضات المختلفة وانفجرت الانتفاضات الشعبية، الثورية و الرجعية، التي ما كانت تتخفى وراء قناع الدين أو المطالبة بكنيسة قليلة النفقات الا لتوجه مسموم سهامها للنظام الإجتماعى الأقطاعى الذي عاش دهره.

من الطبيعى أن يكون نقد سيطرة الإقطاع بالفكر والسلاح نقدا مباشرا للكنيسة التي هى تركيب هذه السيطرة الأكثر شمولا ومبررها الأكثر حماسا. لأنه كان على القوى البورجوازية الصاعدة،



التي تحتقر الشروط الإقطاعية السائدة في وعي الجماهير، أن تنزع تاج القداسة وتنزل بها من سماء الله إلى أرض الناس. وهكذا "تحطمت الديكتاتورية الروحية للكنيسة التي نبذتها أغلبية الشعوب الجرمانية مباشرة باعتناقها البروتستانتية. وكان الفكر الحر النشيط الذي أخذته الشعوب الرومانية عن العرب وغذته بالفلسفة اليونانية الحديثة الإكتشاف، بعمق جذوره أكثر فأكثر عند هذه الشعوب ويمهد لظهور مادية القرن 18ع".<sup>1</sup>

قدم تحالف الملك، الإقطاع والكنيسة نفسه كتجل لارادة السماء التي لا مراد لها. أما نظام البورجوازية فقد قدم نفسه وما يزال على أنه تجل لا مرد له هو الآخر لإرادة الإقتصاد. هكذا جعلت البورجوازية مملكتها من هذا العالم. وصنعت إلهها بيديها.

تنويع الهها : الإقتصاد، إقتصاد الإنتاج ثم إقتصاد الإستهلاك على عرش الإرض كان يتطلب، في البدء كشرط ضروري، نزع تاج اله السماء الذي كان يغطي الأرض بظله.

تقلد هذه المهمة فرسان اقلامها الذين عروا حقيقة الوهم الديني بكشفهم عن جذوره الأرضية : "قهر الحكومة هو الذي يجعل الدين ضرورياً. لأن الإنسان عندما يعيش حياة بائسة يفكر تفكيراً بائساً. تحرير الإنسان من الدين مشروط بتحريره من الظلم".<sup>2</sup> وكتب ديرو : "سيظل النوع الإنساني بائساً طالما ظل على الأرض ملوك، قوانين، ملكية خاصة Le mien et Le tien وكلمات الفضيلة والرذيلة". وحارب فقهاؤها، باسم التشريع الروماني، حملة الكنيسة على الربا، ظاهرياً باسم شريعة المسيح وفي الواقع بأسم مصلحة النبلاء، بعنف لم يفقه، فيما بعد إلا عنف البورجوازية والكنيسة معا في محاربة مطالب العاملة الفتية.

كان معظم مفكرى عصر التنوير ملاحدة. وكانوا عموماً ثوريين فكراً وممارسة إذ أنهم كانوا طرفاً مباشراً في الصراعات والانتفاضات الدورية التي امتلأت بها حقبتهم العاصفة. ولم يكونوا، كما هو حال الكتاب العرب اليوم على هامشها، ولم يكونوا أيضاً وخصوصاً أسرى ضيق أفق الطبقة المبتذلة التي أرسوا قواعد سيطرتها. وهذا ما جعل رؤياهم وتحريرهم الثوريين يبلغان ذلك الحد من الراديكالية الذي ضاق به صدر طبقتهم بعد أن سيطرت وسادت. "كان أبطال هذا العصر لم يصبحوا بعد عبيداً لتقسيم العمل الذي كثيراً ما نشعر بالحدود الكبرى التي يفرضاها على خلفائهم وضيق الأفق الذي يولده عندهم" (انجلس). لقد ذهب بعض منهم بعيداً في تحريضه الثوري مثل دوشان ومسيللي Meslier الذي حرص العمال بالإضراب العام والعصيان المدني : "أتركوا كليا خدمة هؤلاء الناس العتاة والعديمي الفائدة، اطردهم طرداً من مجتمعكم، وبهذه الوسيلة سترونهم قريباً هشيماً كالأعشاب التي لم تعد جذورها تمتص نسغ الأرض".<sup>3</sup>

راديكالية هذا التحريض كانت صدى لراديكالية تمردات الفلاحين الدورية (1630-1789) ولأنات الشعب المكبل و مطالبه التي لم تعد تحتل المماطلة.

\*\*\*

لكن القرن 18 ع لم يكن خيراً كله : ففيه نزل الإنسان من سراب الإقطاع إلى مادية البورجوازية الوضيعة، من التجريد اللاهوتي إلى التجسيد الدنيوي، من اغتراب الإنسان أمام الطبيعة إلى اغتراب الإنسان أمام الإنسان، اغتراب العامل أمام المعلم عبر سيادة العمل المأجور : "هذا الشكل الملطف من أكل لحوم البشر" (ماركس). وأخيراً الإنسان في القرن 18ع من السعادة

الوهمية إلى الشقاء الفعلي : من الإقطاع إلى البورجوازية ولسان حاله يقول : الجنة غير موجودة أما الجحيم فنحن فيه.

لقد عرى النقد البورجوازي للدين الأغلال من الزهور الخيالية التي كانت تغطيها لا لكي يحطم الإنسان الأغلال ويجني الزهور اليانعة، بل لكي يحمل أغلاله بمهانة. وهنا يكمن الفارق النوعي بين النقد البورجوازي للدين والنقد البروليتاري للدين. هذا الأخير هو نقد نهر الدموع المكمل بالدين، هو الانتقال من نقد السماء إلى نقد الأرض الرأسمالية، هو نقد لسلطة الإنسان على الإنسان في آخر شكلها : البورجوازي والبيروقراطي.

من البديهي أن هذه المهمة لم تكن مهمة البورجوازية بل هي مهمة البروليتاريا الراديكالية راديكالية الأغلال التي تحملها. ويومئذ كانت البروليتاريا ما زالت طفلاً يشكو ولم تصبح بعد عملاقاً يتحدى.

\* \* \*

انجلى غبار ثورة 1789-92 على سقوط مملكة الحق الإلهي و ظهور جمهورية الحق الإقتصادي في فرنسا ثم في جل أوروبا.

اندفعت البورجوازية، في نشوة انتصارها، إلى استبدال ميلاد المسيح، باعتباره تاريخ العهد البائد، بتاريخ ميلادها هي، كطبقة سائدة - اقتصاديا وسياسيا وادولوجيا، باعتبارها بداية للتاريخ الإنساني حقا. وهكذا أصبح عام 1792 في التقويم المسيحي هو العام الأول في التقويم البورجوازي للجمهورية الطاهرة.

لكن هذا التحدي غير الحكيم انتهى مع دستور 1804 (العام 12 حسب التقويم البورجوازي). ذلك هو عمر الثورة البورجوازية لا باعتبارها انهاء لصنع التاريخ بارادة السماء وتدشينها لصنع التاريخ بارادة الإقتصاد، بل باعتبارها بداية للتاريخ الإنساني الذي سلمت ضمينا، بعودتها لتقويم العهد البائد، بأنها ليست هي التي ستدشنه بل أن البروليتاريا الثورية هي التي ستضع نهاية لما قبل تاريخ الإنسان.

هكذا عادت إلى البورجوازية الحكمة، حكمة فولتير : ”يجب أن يقاد الشعب لا أن يُعلم، لأنه ليس جديرا بذلك. السماء الغبية والأرض الغبية ضروريتان للدهماء الذين ليسوا إلا بقرا يحتاج إلى نير، إلى مهماز وإلى العلف (..) وإذا لم يكن الله موجودا فيجب أن نخلقه“ لحفظ النظام !

\* \* \*

وفعلا خلقت البورجوازية الهها : ”الله هو السيطرة الغربية لنمط الإنتاج البورجوازي“ (انجلس : انتي دوهرنج). ذلك لأن العمال في المجتمع البورجوازي خاضعون لسيطرة العلاقات الإقتصادية التي خلقوها بأنفسهم، خلقوها بوسائل الإنتاج التي أنتجوها بأنفسهم، كما لو كانوا خاضعين لقوة غريبة عنهم، لقضاء وقدر لا يفهمون له كنها ولا يستطيعون لشروره ردا.

وهكذا بعد أن كانت السلطة المراتبية (سيادة طبقة على أخرى وسيادة المراتب العليا على الدنيا) مبررة، في التشكيلات السابقة للبورجوازية، بالأسطورة ثم بالأديان شبه التاريخية، أصبحت في نظر البورجوازية التي أعلنت، ولو مؤقتاً موت الله، مبررة بالطبيعة الإنسانية المزعومة التي تجعل من الملكية الخاصة - أي حرمان الشعب، الذي هو مجموع الجموع التي انتزع منها أعتبارها واعتصبت منها حقوقها، املاكها ووقتها، من التمتع بالحياة، من تقرير مصيره في الحياة اليومية، من وضع نهاية لفصل الطبقة العاملة عن ملكية وسائل الإنتاج وفصل العامل عن منتج عمله - فطرة إنسانية، جوهر أديانها، لا منتوج اجتماعيا لتطور تاريخي مدرك أو قابل للإدراك.

\* \* \*

عدلت البورجوازية عن تقويمها الخاص لأنها تعرفت على نفسها - كطبقة معادية لمقدمات ثورتها نفسها التي جعلت التحرر الشامل للبروليتاريا، وبالتالي للإنسانية، ممكناً نظرياً باستئصال سعادتها الوهمية وممكناً عملياً بتوفيرها الشروط المادية لتحقيق سعادتها الحقيقية - في العهود البائدة. "لقد تعرفت على مصلحتها الحيوية في التصالح مع الدين. لأن نضالها ضده هو نضال غير مباشر ضد نفسها: "لأن نقد الدين، هو بالقوة، نقد هذا النهر من الدموع المكلل بالدين"، (ماركس)<sup>4</sup>. لأن نزع الأشكال الدينية للاستلاب يفترض نزع أشكاله الدنيوية، لأن تحرير الإنسان من رق آلهة السماء الوهمية يقتضي تحريره من آلهة الأرض الحقيقية: الملكية الخاصة، العائلة والدولة<sup>5</sup>. ولأنها عرفت أخيراً أنها طبقة كجميع الطبقات الجلادة، "تحتاج إلى جلاد وكاهن"<sup>6</sup> (لينين)، جلاد لقمع الثائرين وكاهن (اقرأ أيضاً صحافي، معلق تلفزيون، مخرج، استاذ، كاتب، نقابي، ستاليني، معلن...) لقمع الوعي النقدي الشعبي بسلاح الأديولوجيا. لأن استمرار سيادة البورجوازية، أكثر من سيادة أي طبقة سبقتها، رهن، بالتوازي مع تمتيتها للإنتاجية والإستهلاك، باستمرار تخليفها للوعي. لأنها تدرك أن هذا الوعي ما إن يتحرر من سلبيته حتى يرمي بها أرضاً.

\* \* \*

حدث اليوم عملياً، في المجتمعات الصناعية، ما تمثله ماركس نظرياً: ستقضي الصناعة على الدين أو، بالأقل، تجعله كذبة مكشوفة، (الأديولوجيا الألمانية).

لهذا السبب تم في الغرب (الولايات المتحدة أوروبا + اليابان) أو كاد الاستغناء عن مؤسسات أديولوجيا القمع العتيقة البعيدة عن الإنتاج (الدين، الاخلاق وقريبا الحزب) لكن دون أن يتم إلغاؤها، لأنها ما زالت رديفاً فلكوريا لترسانة القمع الجديدة الممركزة والخاضعة لإشراف الدولة التي تهيمن بدون منازع على آلية *mecanisme* الإستهلاك. وسائل الإعلام من التلفزيون إلى الاعلان. لأنها بدون بسط سيطرتها على هذه الأدوات التي تخلق بها الرأي العام السلبي لا يستطيع كذبها المنظم أن يصمد أمام انتفاضة الوعي البروليتاري حالما يعي شروط تزييفه.

\* \* \*

تزامن ظهور الآلهة مع ظهور التبادل غير المتساوي بين الأفخاذ والقبائل ومع ظهور نظام المراتب. لجعل اللامساواة بين المتبادلين غير المتكافئين مشروعة، لخلق صوت الاحتجاج عند ضحايا الغمط وعند ضحايا السلطة المرانبية، لجعل قانون القوة قوة القانون، لكي يصبح الإرغام الخارجي واجبا من واجبات الضمير، كان لابد من مبرر أعلى من الإنسان ومتعال عليه يقدم للضحية العزاء و يقدم لجلادها المبرر<sup>7</sup>، يصبغ على تنظيم العلاقات الإجتماعية الذي صاغه الناس بأنفسهم، على تقسيم العمل إلى ذهني وبيدوي الذي اقتضاه نظام المراتب، هيبة سلطان القداسة الأسطورية في المجتمعات الرعوية، والقداسة الدينية في المجتمعات الزراعية.

لكن تقسيم العمل لم يكن وليد صدفة بل كان وليد وضع محدد من تطور المجتمع البدائي الذي اندفع، ولو بثمن مظلمة من حجم مظلمة تقسيم العمل، لتنظيم بقائه على قيد الحياة مغفيا فصيلا من أعضائه من الأضطلاع بمهام الإنتاج المباشر لأشياء الحياة الضرورية (زراعة الأرض)، ومخصصاً حصة من مواده لصيانة مؤسسات أيولوجية صرف.

لم تكن هذه المؤسسات الدينية، بالنسبة للنخبة السائدة، بدون مردود : فقد كانت تعوض عدم كفاية القوى المنتجة بفضل تسويغها للضرورات التي كانت تنظم العلاقات الإجتماعية المتناسبة مع درجة تطور هذه القوى، كما كانت تقنن استخدام الزمان والمكان مقيمة الفواصل والحدود بين المقدس والمدنس le Sacré et Profane وكانت بوجودها ذاته تحقق عدداً من الإكراهات : الدولة، المعابد، القصور... وباختصار استطاعت المؤسسات الأيدولوجية الصرفة، بتوحيدها لمؤسسات الدولة البدائية مع مؤسسات الله، ان تحصنها من معارضة الجماهير المظلومة التي كان عليها أن تخشى ظل الله على الأرض (الدولة) بقدر ما تخشى الله نفسه. "لقد لعب الدين والسياسية نفس الدور ؛ لقد وعظ الدين (الناس) بما كان الإستبداد يريده : إحتقار النوع الإنساني، عجزه عن تحقيق الخير بأي درجة كانت وعجزه عن أن يكون شيئاً ما بنفسه (هيغل). أحتقار الجسد كمكان للخطيئة، واحتقار الحياة كدار فانية وتحويل جريمة التضحية بالنفس في سبيل الآخر، حاكماً كان أو إلهاً، إلى واجب مقدس.

هوامش :

\*- يقصد العفيف الاخضر هنا "نصوص حول الموقف من الدين" وهي نصوص مختارة من كتابات لينين، قام بترجمتها محمد كبة (دار الطليعة للطباعة والنشر بيروت). الذي قام الاخضر هنا بمراجعتة وكتابة مقدمته تحت عنوان "من نقد السماء الى نقد الارض"

- 1- انجلس : ديالكتيك الطبيعة.
- 2- الكاهن : Don Deschamps في كتابه Le vrai Système الذي وصفه ديدرو Diedro بأنه أحد الكتب الأكثر عنفا وأصالة.
- 3- Œuvre de Jean Meslier. Ed. Anthropos
- 4- نقد فلسفة الحق عند هيغل : ترجمة م. الخياطي. ب. المهذب ع. الاخضر
- 5- يوم اضطهاد المجتمع الرأسمالي على ثلاث دعائم : الملكية الخاصة : اغتصاب الاقلية لاملاك، فائض القيمة وفائض وقت الاكثرية المنزوعة الملكية. العائلة : معمل الايديولوجيا الاستبدادية، مخفر قمع عفوية وغرائز الاطفال، مكان تشويه نشاطهم الذهني والجنسي ونفي

استقلاليتهم، المدرسة الاولى لتعليم الطفل الخنوع امام سلطة الاب وبالتالي القائد، رب العمل ورب الدولة. انها خلية النظام القائم الاولى وضمانة استمرارية مراتبه. ووفرة استهلاك بضائعه المفرغة من القيمة الاستعمالية. الدولة : قمع طبقة لطبقة اخرى. (لينين)

**6-** في 1850 عرض الوزير Falloux قانون "الحرية" على البرلمان. وابرز ما في هذا القانون وضع التعليم تحت رقابة الكهنة : "لكي، كما قال الوزير، يقوم الكهنة بواجبهم الذي هو وعظ الفقراء بان يخضعوا للاغنياء". وهذا ما استفز مشاعر فيكتور هيجو فهاجم "البورجوازية الملحدة من اللون الكاثوليكي". واستنكر عليها ان تدعو "الكنيسة أماً لتجعل منها خادمة لها".

(Ne l'appellez pas votre mère pour faire d'elle votre servante)

**7-** الضحايا كانوا بحاجة للدين كوعد بالسعادة في الدار الآخرة بنما كان الحاكمون المتمتعون فعلا بالسعادة في شروط الامكانيات المتاحة في غير حاجة الى الدين الا كخدعة وضابط.

## II أين وصلت المسألة الدينية في الغرب ؟

شينا فشيئا، وبشكل حاسم، في النصف الثاني من هذا القرن، استبدلت المؤسسات الدينية التي صعدت سيوفها في الغرب بمؤسسات المشهد : *Le Spectacle* سيطرة المظهر على الجوهر. "يقدم المشهد نفسه كإيجابية هائلة لا مرية فيها ولا تنال. فهو لا يقول أكثر "من أن ما تشاهده خير، والخير تشاهده". والموقف الذي يفرضه المشهد هو مبدئيا القبول السلبي الذي قد حصل عليه عمليا بطريقة ظهوره التي لم يواجهها اعتراض وباحثكاره للمظهر (جى دوبر) <sup>1</sup>.

حدث هذا التحول لأن المؤسسات القديمة استنفذت أغراضها بامتلاك المجتمع البورجوازي المعاصر القدرة التقنية على إنتاج الإكراه والضرورات والحدود القديمة تحت أشكال جديدة. لم تعد المراتبية الغربية اليوم بحاجة إلى المعبد والكاهن لشل بذور التمرد في وعي طبقة العبيد الجدد : البروليتاريين المحرومين من استخدام وقتهم للاستمتاع بحياتهم. لقد استبدلت المعبد والكاهن بالمعمار *l'urbanisme* : التنظيم الإلزامي للمكان والعزلة، بالتلفزيون وبالاستهلاك.

السعادة لم تعد وعدا اسطوريا كما كانت في الدين، بل أصبحت الزاما إقتصاديا : أيها العامل كلما ازدادت انتاجيتك، وكلما ازداد استهلاكك ازدادت سعادتك. هذا هو ما يميز الإستهلاك المشهدي، وريث الدين : إعطاء الثواب، عن الحرمان الفعلي، في العاجلة لا في الأجلة. الجنة لم تعد في السماء بل في المخازن.. وويل لأصحاب الجيوب الفارغة ! تماما كما في الدين، لا فرق بين عربي وأعجمي إلا بالتقوى، كذلك في حضارة الإستهلاك، لا فرق بين أسود وأبيض بين أهلي وغريب إلا بكمية البضائع المستهلكة.

الإقتصاد الرأسمالي العقلاني في الظاهر تحكمه في الواقع لا عقلانية جوهرية : لأنه، لكي يتفاد الأزمة : إختلال التوازن بين القدرة الشرائية وكمية البضائع المعروضة في السوق، بين كثرة الإنتاج وقلة الإستهلاك، أستنجد بالتبذير وبيكتاتورية الإستهلاك.

هكذا بمقدار ما أنتج اقتصاد الإستهلاك من تعددية الأشياء المفرغة من القيمة الإستعمارية بمقدار ما اختزل الإنسان المتعدد الأبعاد إلى بعدين اثنين : منتج - مستهلك. منتج لأي شيء (قنابل نابالم، فسفور، ميكروبات الحروب البيكتيريولوجية..) ومستهلك لأي شيء (من الاسبرو المدمر للامعاء إلى المعلبات المغشوشة بالزئبق السام)..<sup>2</sup>

ديكتاتورية الإستهلاك (ديكتاتورية البورجوازية المعاصرة) هي استبدادية توتاليتارية من طراز جديد لا تفرض نفسها الآن (من يدري غدا ؟) بالعنف البوليسي على رعاياها (لكن بالمقابل تفرض نفسها في المستعمرات، في فينتام بفاشية جديدة بأكلي لحوم البشر) بقدر ما تتسلل بعنفها غير المرئي والمدمر - تماما كما فعل الدين - الى سريرتهم، كمستهلكين سلبيين، عبر عقلانية تيكنوقراطية تجرد الانسان - الذات من نقديته وإنسانيته معاً وجمعياً، مختزلة آياه إلى بضاعة تنتج البضاعة وتستهلك البضاعة والصور.

ليست الحضارة الإستهلاكية المعاصرة إلا مراكمة منوعة للبضائع : راديو، تلفزيونات، برادات، سيارات إلخ. لكن المستهلك السلبي، الذي يفعل الحب ولا يفعل، فهو، في واقع حاله، كلما ازداد ثراؤه الكمي بامتلاك الأشياء ازداد فقره النوعي من امتلاك الضجر له وابتعاد حلم السعادة الحقيقية المعاشة التي تجعل منه إنسانا مستلبا، مشطورا على ذاته ومعزولا عن الآخرين



الذين لم تعد علاقاته بهم إلا علاقات بين الأشياء.

العامل في الغرب اليوم وهو في شقته المكيفة، التي عزلته عن الناس لترغمه بدون عصا على الأستماع لرسالة النبي الجديد الذي يعلم الناس الإكتفاء بمشاهدة تمثيل الواقع بدلاً من عيش الواقع : التليفزيون الذي جعل الأب لا ضرورة له والروح والفكر أشياء تخطاها الزمن، ليس أقل شقاء من جده الذي كان ينام في القرن 19 ع، مع الخنازير في بيوت افاض اميل زولا في وصفها وتتعرف عليها في مخيمات اللاجئين وأحياء العمال العرب اليوم !

تماماً كما أعطى الأنبياء القدامى شيك بدون رصيد لتزييف مطلب الإنسان في عيش السعادة، خلقت الطبقة السائدة في الغرب حاجات مزيفة لدى الناس وقدمت لهم بضائع بدون قيمة استعمالية لإرضائها بشكل لا يقل زيفاً. كما خفض الدين الانسانية البرئية إلى أشلاء من العبيد الخطة الراضين بعبوديتهم باعتبارها قصاصاً مستحقاً عن الخطيئة الأصلية، حوّل المشهد الناس إلى أشلاء متساوية في التفاهة، في الإقبال على الإستهلاك وفي معايشة الضجر<sup>3</sup>. إذا كان لأبناء العالم القادم أن يتذكروا البورجوازية بشيء، فبكونها نقلت رعاياها من عصور الموت جوعاً إلى عصر الموت ضجراً.

كما قضى الدين على التعايش في انسجام بين الإنسان والعالم وخلق لفصلهما سلسلة من الشاشات والوسائط، كذلك قضت الحضارة البورجوازية على التواصل Communication الإنساني بما خلقت من شاشات، وسائط، وبضائع. وقضت على مكان هذا التواصل بالذات : على الشارع الذي كف عن كونه مكان لقاء وحوار بين ساكنيه ليصبح مكان صف السيارات وموضوعاً لرقابة البوليس. وقضت أخيراً على الطبيعي في الطبيعة والإنساني في الإنسان.

في مرحلة إقتصاد الإنتاج استبدلت البورجوازية شعار النبلاء : الوقت من أجل اللذة بشعارها الكئيب : الوقت من أجل الإنتاج. ثم في مرحلة إقتصاد الإستهلاك ب : الوقت من أجل الإستهلاك<sup>4</sup>.

لذا نرى بدايات المشروع الثوري الذي بدأ يعبر عن نفسه في الإضرابات العمالية النوعية، الجديدة شكلاً ومضموناً وفي إنتفاضة أيار 68، يرفع شعار العودة إلى الوقت من أجل اللذة بدون عودة النبلاء. وهي عودة أصبحت مستحيلة تاريخياً.

ليس في المشروع الثوري الغربي، كما سيتراءى لمنظري التخلف المتخلفين أي طوباوية طفولية. فالتيكنولوجيا وبالتحديد الأتمتة automation (الألية - الذاتية) قضت نظرياً على عصر التعب ودشنت عصر اللعب. الآلة والادمغة الالكترونية تسمح الآن بان يصبح الوقت المرصود للإنتاج - إنتاج القيم الإستعمالية فقط - هامشياً. والوقت الموظف في الأستمتاع الحر بالحياة الحرة أساسياً. لكن ذلك لم يقع ولن يقع حتى يطاح بسلطة البورجوازية.

\* \* \*

في المجتمع الغربي انتقل الثوريون من نقد المؤسسات اللاهوتية الى نقد مؤسسات الثقافة الجماهيرية الممركزة. ولن تطيح ثورة الشيوعية القادمة فيه بالدين، فهذه مهمة قد انجزت، بل بالمشهد.

---

هوامش :

- 1- Guy Debord : La société du spectacle. Ed. Buchet -1 وهو كتاب ثوري يأتي، من حيث الأهمية، الثاني بعد رأس المال
- 2- مؤخرًا منعت الحكومة اللبنانية استرداد المعلبات الأمريكية لأنها مغشوشة بالزئبق. لكن يبدو، لمن يغشى الأسواق، ان القرار بقي حبراً على ورق. تحيا حرية التجارة !
- 3- اقرأ : السأم. مورافيا دار الآداب
- 4- يحق للبوليس في مدن الولايات المتحدة ان يعتقل اي متجول بدون ”هدف“ الا اذا اثبت ان هدفه هو مشاهدة البضائع المعروضة بنية استهلاكها....

### III من نقد اللاهوت إلى نقد الإستبداد البيروقراطي

في العالم البيروقراطي، الماركسي اللينيني، استبدلت عصمة الكنيسة بعصمة الحزب البيروقراطي الواحد، استبدلت المثالية الدينية بالادبولوجيا المادية البيروقراطية واستبدل المسيح بستالين (ستالين هنا هو رمز للامين العام للجنة المركزية في الأحزاب البيروقراطية) فهو "أعظم الفلاسفة في كل العصور" (اراجون Aragon) وهو "صاحب القدح المعلى في الفن والادب" (روحي جارودي) وهو "الاب العبقري لجميع الشعوب" (لومانيتي، جريدة ح.ش.الفرنسي) على الارض كما يسوع اباها الذي في السماء ...

سر هذه الظاهرة يكمن في واقع ان الطبقة البيروقراطية عندما تكون ما زالت لم تنجز مهمة التراكم البدائي لرأس المال، عندما تكون ما زالت في مرحلة التكون التجريبي واكتمال الملامح، تكون بحاجة إلى ايدولوجية كلية الإستبداد ومعصومة متجسدة في زعيم كلي الإستبداد ومعصوم هو الآخر (ستالين، ماو) لتوطيد سيطرتها على الفلاحين، على العمال، ثم على الجميع. ولقمع الصراعات الزمرية في صلب الطبقة ذاتها. في هذه المرحلة لا تستطيع البيروقراطية فرض سلطتها المطلقة الا بالارهاب المطلق داخل وخارج صفوفها، بالمركزية والانضباط الحديديين وبدقة طقوسية في عبادة التسلسل المراتبي ابتداء من الاعلام إلى المرتب. حسب المرء الرجوع إلى تاريخ الكنيسة ليجد تشابها مذهلا بين مراتبية الكنيسة ومراتبية الأحزاب البيروقراطية.

لكن ما أن ينجز التراكم بوسائل سماها بوخارين همجية، وما أن تكتمل ملامح الطبقة البيروقراطية وتتبلور مصالحتها بما فيه الكفاية حتى تصبح قيادة أركانها إلى درجة تزيد أو تنقص، حسب الحالات العينية، محكومة بالمصالح الموضوعية للطبقة ككل لا بانفعالات أو إجتهدات الزعيم اليونابارتي. وهكذا تقل حاجاتها لوضع شاشة مقدسة (ايدولوجيا، زعيم) بينها وبين رعاياها. وتتخلى بالتالي عن عصمة الأيدولوجية (التحريفية الخروتشوفية) وعن عدليها وضامنها : عصمة الزعيم الذي يتحول من أب عبقري لجميع الشعوب إلى "شقي، طاغية ومجرم" على حد وصف تقرير المؤتمر العشرين لستالين.

في هذه المرحلة تنتقل الطبقة المتشكلة من عبادة القائد إلى عبادة القيادة الجماعية، من الحاجة إلى البطل البيروقراطي إلى الحاجة إلى الكادر التكنوقراطي (من لين بياو إلى شوان لاي)، من عبادة الدوجم dogme إلى عبادة الذرائعية : الفعالية في زيادة الإنتاج والإنتاجية. ويصبح قمعها لمعارضيها خاصة داخل صفوفها أضيق نطاقا، أقل دموية<sup>1</sup> وأكثر تخفيا، لأنها باتت أكثر ثقة بنفسها وبرسوخ سلطتها.

يتزامن هذا الإنتقال مع إنتقال آخر : من التشويش على الاوضاع الراهنة العالمية والتحريض اللفظي ضدها إلى الواقعية في السياسة الخارجية التي تجد تعبيرها في التعايش السلمي بشتى مراحلها : الانفراج فالتفاوض فالتعاون. ذلك ما حصل في روسيا ودول أوروبا الشرقية الدائرة في فلكها، وما بدأ يحصل في صين ماو وهو على قيد الحياة.

\* \* \*

لكن مهما مطت البيروقراطية لبيرايتها فإنها لن تتخطى حدين محرمين : الاعتراف بهويتها أي



بانفصالها الفعلي عن البروليتاريا وانكار احتكار الحزب - حتى مع الإقرار الممكن بإمكانية الخطأ الذي لا يجوز أن يصححه إلا هو نفسه وفي الوقت الذي يراه مناسباً - للمعرفة.

قوة البيروقراطية تكمن في انكارها لوجودها، كمحاولة يائسة لارتداء طاقية الإخفاء أمام الوعي البروليتاري - وكل الذين يتجاسرون على تذكرها بوجودها المنفصل عن البروليتاريا أي بضرورة إنهاء وجودها، ليسوا بنظرها إلا هراطقة تلاحقهم بنهم قليلة الاختلاف عن تلك التي لا حقت بها الكنيسة هراطقتها في العصور الوسطى.

طغيان الحزب البيروقراطي يتجلى في قراره بأن المعرفة إحتكار له والتاريخ من صنعه. البروليتاريا لم تعد ذاتا صانعة للتاريخ كما هي والتاريخ في الواقع وكما كانت عند ماركس بل أصبحت موضوعا منفصلا لمعرفة الحزب وقراراته التاريخية. تماما كما كانت كنيسة محاكمة التفتيش تدعي بأن معرفة الحقيقة وقف عليها وأن رعاياها موضوع لمعرفة وعناية محاكمها الدموية.

لنأخذ بالصدفة مثلاً قريبا منا مكانا وزمانا : الطلبة الذين يحرضون بالتسيير الذاتي الشامل في يوغسلافيا، التي تدين رسمياً بالتسيير الذاتي، طبعاً بالتسيير الذاتي كما يفسره الحزب وتطبقه البيروقراطية : تسيير العمال لاستلابهم الذاتي، يلاحقون لأنهم "أعداء الشعب والدولة" مثلما حصل لكلوجيك، امسيروفيك ونيكوكيك.

في رسالة نشرتها مؤخراً (المانيفستو) الإيطالية كتبها الطلاب الثلاث وهربوها من سجنهم، نجد كل ما يعيد للذاكرة ذكريات كنيسة التفتيش : "إننا ملاحقون من أجل الهراطقة لأننا أعلننا بأن العلاقات الاشتراكية الانسانية حقا لا سبيل إلى إقامتها في إطار إقتصادي بضاعي وتنافس مجنون ؛ وبان الديموقراطية الاشتراكية والتسيير الذاتي لا يمكن أن يوجد ما دام الحزب يعزز باستمرار الدور السياسي والإقتصادي للدولة. وبان أحدا لا يستطيع أن يدعي تحقيق التسيير الذاتي العمالي وسلطة الطبقة العاملة بينما لا وجود لعمال في حيث تتخذ القرارات الأساسية... بينما يتناقص عدد وتأثير العمال في الحزب الواحد القابض على السلطة (...). إننا متهمون بالهراطقة لأننا فكرنا بأن من الممكن بل من الضروري التحقيق الفوري للتسيير الذاتي العمالي الشامل في جميع مستويات المجتمع - من مستوى المعمل إلى مستوى الإتحادية اليوغسلافية، وذلك بتمكين الجماهير من تسيير المجتمع وبالقضاء على دور "السياسيين المحترفين"."

في نفس يوغسلافيا حيث البروليتاريا سائدة دعائياً، أدين طالب بالسجن 20 شهراً لأنه أضرب عن الطعام تضامناً مع عمال البوسنة الذين احتلوا المنجم واعتقلوا مديره.

وفي هذا الشهر، دائماً في يوغسلافيا، صودرت مجلة "براكسيس Praxis" لأنها قالت بأن "الماركسية أصبحت في يوغسلافيا قطعة أثرية في متحف العاديات، والماركسيون فيها ملاحقون".

اسبانيا توركمادا وسيسنروس<sup>2</sup> مازالت حاضرة في مكان تقريبا من المعسكر البيروقراطي الذي جعل الأجهزة كبيرة والناس صغارا، اختزل، الفلاحين، العمال والشباب إلى عبيد ونصب دولة الحزب كنيسة مقدسة لا يرقى إليها الهمس.

\* \* \*

هنا مهمة الثوريين والثورة الانتقال من نقد الدين إلى نقد الإيدولوجيا البيروقراطية ومن اللاهوت

إلى نقد الاستبداد البيروقراطي الشامل. هنا نقد الجنة الدينية يتحول إلى نقد جحيم البيروقراطية.

\* \* \*

إذا كان نقد الدين في العالم المتقدم، إقتصاديا مهمة قد انتهت من حيث الأساس البورجوازية الثورية في الغرب والبيروقراطية الثورية في الشرق، فإن نقد الدين في المجتمع العربي مهمة راديكالية لم تبدأ بعد لا من وجهة نظر ماركس ولا حتى من وجهة نظر ديديرو<sup>3</sup>. لكن إذا شرعنا اليوم في تحقيق هذا النقد الذي هو "الشرط الأول لكل نقد" (ماركس) فإننا سنجد انفسنا بالكاد في النصف الثاني من القرن 18 وما أبعدنا عن 1972 !

علينا إذن، لكي نكون معاصرين لعصرنا، أن نمارس في نفس واحد نقد السماء الدينية ونقد الأرض الرأسمالية، نقد الإستسلام للتراث ونقد الإستسلام للامبريالية، نقد دور الإفتاء ونقد دور الصحافة، نقد المنابرون نقد الأذاعات.

---

هوامش :

1- صرح الكاتب الروسي سولجنستين لمراسل صحيفة اجنبية : "الان في الاتحاد السوفياتي لم يعد نقد الواقعية الاشتراكية او طبع كتاب سرا يكلف المرء حياته. انه لا يكلفه اكثر من السجن والحرمان من المرتب". فيا له من تقدم

2- (1420-1498 Torquemada) و (1436-1517 Cisneros) جزاران شهيران في حويليات محاكم التفتيش في اسبانيا

3- معظم ما صدر حتى الآن عندنا تحت عنوان نقد الدين، جدير بان يصنف دون حرج تحت عنوان دعم الدين. باستثناء مقال عاطف احمد "ملاحظات حول الفهم العصري للقرآن" الذي مس بحدرد بعض الجوانب. الا ان المقال ينقصه الولا روح التعميم، وينقصه ثانيا، وبكل وضوح، الانتقال من نقد السماء الى نقد الارض، من نقد الدين الى نقد الحق، من نقد اللاهوت الى نقد السياسة ومن نقد الاخوان المسلمين الى نقد الاتحاد الاشتراكي. (مجلة مواقف، تموز-أب 1971)

#### IV موقف الستالينية العربية من الدين ؟

لأن على الثورة العربية أن تحقق مهام جميع الثورات السابقة المجهضة والثورة القادمة الظاهرة : فأمام البروليتاريا العربية أن تحقق سلطتها الديمقراطية : إتحاد المجالس الشيوعية، أن تحقق تحرير الوطن العربي من الإستعمار الإستيطاني ومن الإستعمار الجديد وتحرير الحياة اليومية العربية من إستعمار التقاليد المميتة، من بؤسها المزدوج : الكمي والنوعي. ان عليها أن تنتقد التخلف الإقتصادي و تنتقد عبادة الإقتصاد.

البروليتاريا في العالم العربي هي كطبقة، قائمة لمجموع الطبقات الكادحة، القادرة على إنجاز هذا النقد. لماذا ؟ لأن بورجوازية ديناميكية من الطراز الغربي لم يعد من الوارد، لأسباب يعرفها الجميع وكل واحد، أن تظهر عندنا. ولان بيروقراطية ثورية من الطراز اللينيني وحتى من الطراز الماوي، هي الأخرى، بات من الصعب نجاحها عندنا. لان الاحزاب الماركسية اللينينية التي قادت مسيرة الثورات البيروقراطية في اسيا أو في شرقي أوروبا كانت، على صعيد نقد السماء الدينية والأرض الرأسمالية المتخلفة أو شبه الإقطاعية، أكثر راديكالية من البورجوازية الأوروبية الصاعدة. أما في العالم العربي فهذه الأحزاب تصالح الدين تماما أكثر مما صالحته البورجوازية في شتاء عمرها. وبذلك - وليس موقفها من الدين إلا عينة نموذجية لباقي مواقفها - تخلت عن كل ما هو راديكالي في الأيديولوجيا البيروقراطية الثورية. وانغمست إلى المرفقين وإلى ما فوق المرفقين، في تحريف كل ما هو ثوري في الأيديولوجيا اللينينية. اما النظرية الماركسية فليس من اللائق حتى الإشارة إليها بهذا الصدد.

\* \* \*

كتب ماركس عن الغرب الذي لم يلد فيه الدين : "نقد الدين هو الشرط الأول لكل نقد".

سيرد عليّ، في جوقة، الذين حفظوا جارودي عن ظهر قلب : لكن ماركس تم تجاوز أخطاء شبابه هذه منذ زمان بعيد... وقت ساعتك على لينين !

...وكتب لينين : "من واجب الإشتراكيين المطلق أن يتدخلوا (في البرلمان 1909) لإعلان وجهة نظرهم من الدين (...). الأساس الفلسفي للماركسة، كما أعلنه ماركس وإنجلز مرارا، هو المادية الجدلية، التي تبنت تماما التقاليد التاريخية لمادية القرن 18 ع في فرنسا ومادية فيوررباخ في ألمانيا. وهي مادية بلا جدال ملحدة ومناهضة بإصرار لجميع الأديان. لنتذكر ان كتاب إنجلز (انتى - دوهرنج) الذي قرا ماركس مخطوطته، اتهم المادى الملحد، دوهرنج، بعدم التماسك في مادتيه وبمجاملته للدين والفلسفة الدينية. لنتذكر أن إنجلز، في مقالته عن فيوررباخ، يأخذ على هذا الأخير بأنه حارب الدين لا بهدف تقويضه بل بهدف إصلاحه، بهدف إختراع دين جديد (...). إن الدين هو أفيون الشعوب. هذا القول الماثور لماركس هو حجر الزاوية لمجمل وجهة النظر الماركسية حول الدين. لقد نظرت الماركسية دائما إلى الأديان والكنائس وجميع المنظمات الدينية، كأدوات بيد الرجعية البورجوازية للدفاع عن الاستغلال ولتسميم الطبقة العاملة"

وكتب : "لقد أنتج (تاكتيك الإشتراكية الديمقراطية ازاء الدين) تشويها جديدا للماركسية في الإتجاه المعاكس، في إتجاه الإنتهازية. هناك من أخذ يفسر الدين، بالنسبة إلينا كحزب، أصبح



قضية خاصة. ان إنجلز (...) قد اعتبر من الضروري معارضة هذه النظرية بحزم (...). قائلًا ان الاشتراكية الديمقراطية تعتبر الدين قضية خاصة بالنسبة للدولة، لبالنسبة للاشتراكية الديمقراطية نفسها : ولا بالنسبة للماركسية ولا بالنسبة للحزب العمالي (...). الماركسية هي المادية. وبصفتها تلك، فهي معادية للدين بقوة لارحمة فيها. تماما مثلما كانت مادية القرن 18 ع مادية فيرباخ. هذه مسألة لا يرقى إليها الشك“.

وكتب ايضا وايضا : ”على المجلة ”المادية المناضلة“ ان تقود دعاية الحادية لا تكل ونضالا إلهاديا لا يمل، يجب أن نتقصى بعناية الادب الذي يتناول هذا الموضوع في جميع اللغات وان نترجمه (...). ان إنجلز، وذلك منذ عهد بعيد، نصح قادة البروليتاريا المعاصرين بأن يترجموا وينشروا بين الجماهير، وبين الشعب أدب نهاية القرن 18 ع الالهادي المناضل. انها لفضيحة لنا (ولنا نحن أيضا.أ.) اننا لم نقم بذلك حتى الآن (...). ينبغي ان نزود الجماهير بالمواد الأكثر تنوعا للدعاية الالهادية (...). ينبغي أن نوقفها من سباتها الديني، وان نهزها حتى الاعماق وبكل الوسائل“.

\* \* \*

هذا باقتضاب موقف ماركس، إنجلز، لينين من ضرورة نقد الدين في أوروبا العقلانية، الصناعية وورثية الروح البروميتيوسية. فما هو موقف القيادات الستالينية العربية من الدين في هذا الشرق المكبل بالطقوس والذي ارضه بسماؤه ولدت وترعرعت فيه جميع الاساطير من أكثرها بساطة إلى أكثرها تعقيدا ؟ هل اضطلعت بمهمة ”إيقاظ الجماهير من سباتها الديني“ واحيانا ما قبل الديني ام، بالعكس، قدمت لها مزيدا من الخدر لكي تغط طويلا وعميقا في هذا السبات ؟

دونكم هذه العينة : ”كان الدين عاملا لا جدال في اثره اسعف تكوين الشخصية القومية (...). فكان في ثورة عرابي المصرية وفي ثورة المهدي السودانية زحف ديني غزير (..) ولا يزال في الثورة الفلسطينية اليوم أناس تحدهم الرغبة في الجهاد دونما عصبية. فالشعور الديني الضارب في حنايا الجماهير يستطيع ان يكون وقودا للزامة الثورية حين اشتعالها“ (منظمة العمل الشيوعي في لبنان)<sup>1</sup>.

وفي غير مناسبة كتبت واعلنت قيادات الاحزاب الماركسية-اللينينية في المغرب، السودان ولبنان، انها تتبنى التراث الاسلامي. وصرحت بانها تضع المادية الجدلية على الرف، في انتظار حكم الاجيال القادمة. اما اليوم فهي قانعة بالمادية التاريخية، كقاسم مشترك مع ميثاق عبد الناصر.

هكذا فتنت الماركسية، النظرية الاكثر شمولا وتماسكا، الى ركام من قطع الغيار الرخيص المعروض للبيع بالمفرق في سوق العرض والطلب لاول طالب سواء كان عبد الناصر او الحسن الثاني.

\* \* \*

يبير الستالينيون العرب، على اختلاف منوعاتهم ومصادر الهامهم ورزقهم، مواقفهم المتنافسة في تقريظ الاسلام بهذا الادعاء : الاسلام مازال سلاحا للتحرير عكسا للمسيحية (وبالاحرى

اليهودية) التي كانت وما زالت سلاحا للاسترقاق الروحي للجماهير<sup>2</sup>.

هذه انتهازية صرف وادعاء لا يصمد لحظة امام المادية التاريخية النقدية التي تدرس الظواهر من خلال مكوناتها التاريخية لا من خلال اوهام الناس عنها. اولا الاسلام هو الديانة اليهودية الثانية : "ان هذا في الصحف الاولى صحف ابراهيم وموسى". (القرآن). وثانيا لقد ظلت المسيحية دين شعب، سلواه في المحن لكن ايضا سلاحه للتشهير باحبار اليهود واغنياء الامبراطورية الرومانية طوال ثلاثة قرون قبل ان تصبح دين الامبراطورية الرومانية على عهد قسطنطين. وبذلك فقدت طابعها الشعبي الثوري. اما الاسلام فما كاد يظهر كدين يخوض صراعا ضد جزء من الارستوقراطية المكية حتى تحول بمجرد هجرة محمد الى المدينة، الى دين دولة<sup>3</sup> ، اصبحت بعد اقل من ثلاثين عاما تحطم بالسوط والسيف : نسبها السيف وحسبها الذهب<sup>4</sup>. وتضطهد لا جماهير اهل الذمة فقط ولا جماهير المؤمنين وحسب بل والفقراء من اصحاب محمد انفسهم. مصداق ذلك اضطهاد عثمان لعمار بن ياسر وابي ذر الغفاري الخ.

من الطبيعي ان مهمتنا ليست تفضيل دين على خر فذلك شأن الشيوخ والكهنة الذين لم يكتشفوا بعد انهم في خندق واحد. وانما مهمتنا الجوهرية هي استنطاق التاريخ وتوجيه سلاح النقد الى المبدأ الديني نفسه، مهمتنا هي مساعدة الجماهير على الاستيقاظ من سباتها الديني والخرافي، مهمتنا هي ان نشارك في انجاز مهام حقبتنا التي تتمخض عن انفجار العالم القديم وميلاد عالم جديد.

كما نلمح ارهاص هذه الولادة في تمردات الشباب في العالم كله شرقيه وغربيه، متقدمه ومتخلفه، في الصراع والمطالب البروليتارية النوعية الجديدة، نجد تعبيره ايضا في قيام قيامة جميع فضلات les sous produits العالم القديم من ديكتاتورية السبيرنيقا، كتعبير عن فاشية الاقلية التيقوقراطية التي تذرعت بالعلم للسيطرة البيروقراطية على حياة الجماهير، الى المؤسسات الايديولوجية البالية، كتعبير عن انكار ونيزم<sup>5</sup> الدين والايديولوجيا عموما في عصر يجب ان تبدو فيه الاساطير الدينية على حقيقتها.

هوامش :

- 1- جريدة الحرية، 1971-11-22
- 2- نسيب نمر : فلسفة حركة التحرر الوطني. حيث رد عتي ما اسماء : لا ادريه ومثالية وسطحية صادق العظم بمادية توتولوجية تعلن الحادها باحتشام ثم تسارع لطلب الغفران من الاسلام في الدول العربية "التقدمية" التي تعاملت معه بسخاء في وقت ما !
- 3- انظر : الاسلام وأصول الحكم. تأليف الشيخ علي عبد الرازق، المنشور كاملا بالطلية القاهرة، تشرين الاول-الثاني 1971. وهو كتلب جرى نسف الخلافة في اقل من 7 صفحات ! رغم فشله في اثبات ان الاسلام دين لا دولة.
- 4- اشارة لرواية ابن خلكان : من ان احدهم طلب من المعز لدين الله ان ينتسب. استجاب وعقد مجلسا من النسابين والاشراف. انتظر المجلس الوقور من المعز ان يقرأ عليه بتواضع شجرة نسبه المطعون فيه. لكن المعز استل سيفه قائلا : هذا نسبي. ونثر الذهب عليهم قائلا : وهذا حسبي.

5- شيء او ظاهرة اكل عليهما الدهر وشرب.

## V ما زالت السلطة العربية تحرق البخور لمزابل تراثنا

انعكاس هذه الازمة الشاملة نكاد نراه ارقا في عيون جميع الحكام الذين يقض مضاجعهم شبخ الشيوعية وقد عاد من جديد ليرود لا في ربوع أوربا الشرقية والغربية وحسب بل في ربوع العالم كله.

”القيامة قائمة في العالم اليوم، من كل صوب : القيامة قائمة على كل قديم، في الشرائع والنظم، في الاخلاق والعادات في الادب والفنون (...) والقيامة قائمة كذلك في الكنيسة على قديم : في العقيدة : التعاليم الكنسية غدت في نظر الكثيرين لغزا مغلقا، كلاما فارغا لا طائل تحته (...) وفي الاخلاق : الشرائع الكنسية غدت إلى نظر الكثيرين نيرا ثقيلًا.. وبعضهم خلعه وأحل محله إندفاعا عفويا إلى انماء الذات... وفي العبادة أيضا : الطقوس الكنسية غدت في نظر الكثير تمثيلا أعجم أجوف، لا دلالة فيه ولا وقع له... انه لا يطاق (...) وأخيرا في النظام الذي لم يعد يرى فيه بعضهم غير بقية باقية من عهد باند ينبغي أن يندثر (...) هذه بعض مظاهر الازمة التي يعانها العالم وتعانيها الكنيسة، وهي على ما يبدو تتعدى النزاع الذي لم يخلو منه عصر من العصور، بين حديث وقديم، بين جديد وتقليد، أن النزاعات التي شهدتها العصور الخالية كثيرا ما كانت تدور على اسلوب التعبير، وان تعدته فعلى صيغة التفكير. اما الركائز والاسس فقلما كانت موضوع جدل أو شك. اما اليوم فإننا نشهد نزاعا أعنف وأشد، تناول اول ما تناول، الاساليب والصيغ، ثم لم يلبث ان تجاوزها إلى الركائز والاسس (...) أما الدين فقد أصبح اثرا باليا وممارسات شكلية لا يقبل عليها غير قصار الايدي وقصار العقول“<sup>1</sup>.

الانسانية المعاصرة، كما لاحظ المطران بحزن، أخذت تبحث عن ”انجيل خلاصها“ في مناهل غير انجيل الخلاص، وفي ثورة تطيح بجميع الاستلابات القديمة والحديثة، في إطار سلطة شعبية حقاً قائمة على الإنتخاب المباشر من القاعدة، الانتداب الموقت والجمع الضروري بين سلطتي التنفيذ والتشريع تجد فيها مشاكل الثورة البروليتارية حلها الحقيقي، او على الاقل إطارا لمثل هذا الحل : سلطة يسترد فيها وبها الانسان، فردا وجمعا، سلطته المهذورة، ابداعه المصادر ووجوده الضائع.

\* \* \*

المسيحية التي تعاني من هذه الازمة عرفت عبر تاريخها ومرارا الاصلاح والتطهير من الطقوس الشرقية. اولها اوربة européanisation المسيحية على يد الفيلسوف سيناك Sénèque الروماني ومدرسة فيلون الاسكندراني الرواقية، حيث تمت اقلمة المسيحية البدائية مع الفلسفة الرومانية اليونانية المبتذلة، التي على عكس فلسفة اللذة الابيقورية التي تطورت باتجاه الاحاد، انتهت هي إلى الايمان باله واحد وبخلود الروح. وهكذا فالمسيحية الغربية، والكلمة لبورنو باور Burno Bauer لم تولد في الجليل والقدس بل في الأسكندرية وروما. حدث هذا قبل أن تصبح، بل لكي تصبح، المسيحية ديانة الدولة الرومانية التي توافد عليها الهنس والجرمان للاقتنيات بجنتها.

أما التطهير الأخير من بقايا الطقوس الشرقية فقد حدث في المجمع الفاتيكاني الثاني (1965). اعلن المجمع أولا ان الكنيسة، التي كانت على الدوام ضامنة النظام الإجتماعي السائد، لم تعد



مرتبطة بأى نظام اجتماعي قائم لنمط الإنتاج. واعطى المجمع الضوء الاخضر لمفسري الكتاب ليقولوا بأن "أيام الخليفة الستة" و"تفاحة حواء" و"توقف الشمس" بأمر يوشع و"الأيام الثلاثة التي قضاها يونان (يونس) في بطن الحوت" انما هي اساطير تصورها كتاب الأناجيل أو تلقوها من أفواه الرواة الشعبيين في ايامهم. وليست من الحقيقة التاريخية في شيء. على ان بعض الشرائح لم يكتف بهذا الحد من التطهير بل دفعه إلى ملء مدهاء : تطهير الكتاب من الخوارق الشرقية والعودة به إلى العقلانية الغربية المعاصرة : وهكذا انكروا اسطورة قيام المسيح بعد موته، واعتبروا ان ذلك مجرد تخيل من حوارية، كما ذهبوا نفس المذهب في فهم بتولة مريم التي لم تكن، في رأيهم، الا من نسج خيال المؤمنين القدامى الذين، من فرط اعتزازهم بالمسيح، تصوروا انه ولد من غير زرع بشر ومع بقاء امه عذراء لان البكارة كانت عند الشرقيين وما تزال - رمزا لطهارة النفس والجسد معا. لكنها اليوم في الغرب لم تعد شيئا مذكورا. ولهذا يرى هؤلاء الشراح ان البكارة لا معنى روحي لها ولا تزيد ام يسوع كرامة.

\* \* \*

اما الاسلام المكبل بالطقوس المشتة للتفكير الخرافي فانه لم يتعرض في تاريخه الحديث<sup>2</sup> إلى اي محاولة جدية لتطهيره من الطقوس المعطلة للنشاط الانساني<sup>3</sup> : تبذير ملايين المواشي في الحج وعيد الأضحى كل عام، ارتباك الإنتاج في شهر رمضان (100 مليون ساعة عمل خسارة في مصر 1968 حسب الاهرام) وازدياد استهلاك الطبقات المالكة وخراب الموازنات العائلية المتواضعة، تفاقم أمراض المعدة والسل خاصة في الريف الفقير والأحياء العمالية ومخيمات اللاجئين. هذا فضلا عن الطقوس البربرية في بعض المناسبات الدينية والتبذير المخيف على قبور الأولياء ومزاراتهم...

صحيح ان قطاعا من سكان المدن خفف من الصيام في المشرق والصلاة في المغرب. لكن سلطان هذه الطقوس ما زال مع ذلك ينيخ بكلكيه على ملكة النقد والابداع عند اوسع الجماهير بما فيها ذلك القطاع نفسه. وما زال قوة مرسخة لتقاليد الانضباط امام طغيان عناصر الطبيعة الغاشمة (صلاة الإستسقاء، صلاة الخسوف والكسوف إلخ). وطغيان حكام الطبقات الغاشمة (صلاة اللطيف في المغرب مثلا).

الاستسلام للقضاء والقدر، للكوارث وللطغاة كان وما يزال يجد في اعماق الوجدان الذي صاغه الاسلام استقبالا بدون اعتراض. بل ان الاعتراض يصبح ضربا من الاثم والكفران. فعندما اعلن الخليفة المنصور امام الوف الحجيج : "أيها الناس أن الله ملكني رقابكم وأموالكم فان شئت قبضت وان شئت بسطت. صاحت الجموع المروضة دينيا... الله.. الله يا امير المؤمنين. وعندما اعلن عبد الناصر بعد المنصور باثني عشر قرنا، لتبرير هزيمة 67 : "لا يعفي حذر من قدر"<sup>4</sup> تنفس 99 بالمئة من سامعيه، والامة العربية كلها كانت تستمع، الصعداء وأحسوا بعزاء مريح يضمدم مشاعرهم الجريحة. لا شك أن الحديث قد حرك بطريق التداعي فوجا من الاحاديث والآيات والامثال المماثلة : وما اصابنا من مصيبة إلا بإذن الله... وعسى أن تكرر هو شيئا وهو خير لكم، وعسى أن تحبوا شيئا وهو شر لكم والله يعلم وانتم لا تعلمون. وإنما يبيلوا الله عباده الصابرين... والمكتوب على الجبين تراه العين... ليس من الضروري ان تتحرك شفاه الجميع بهذه الأحاديث والآيات والامثال، إنها جائزة على عقولهم، إنها هناك في الاعماق دركي داخلي يملي عليهم، عن وعي أو بدونه، ردود فعلهم في اللحظات الصعبة خاصة.

\* \* \*

ما زال تراثنا بمنأى عن اي تصفية حساب تاريخية مماثلة لمسلسل التصفيات، التي نزلت بالتراث المسيحي : الاصلاح فى القرن 16ع، مادية القرن 18ع لكن أكثرها حسما اثنتان : الأولى عندما شنقت البورجوازية الصاعدة مع ملوكها تراثها. و الثانية عندما صفت الثورات البيروقراطية، البديل التاريخى للبورجوازية، فى شرقي أوروبا المسيحية، فى آسيا الاسلامية، وفى الشرق البوذي تراث الطبقات السابقة عنها.

أما ”توراتنا“ الفوقية، العسكرية فانها لم تزل تحرق البخور لمزابيل تراثنا الذي لم توجه إليه سبابة الاتهام منذ تسعة قرون على الاقل : منذ اندحار الإسماعيلية الثورية !

المناخ النقدي إزاء التراث الذي أوجده الاسماعيلية - كما سنرى - تلاشى. بل حتى العقلانية الانتقائية (التوفيق بين الفلسفة والدين) والمحتشمة التي نشرها المعتزلة أصبحت مستنكرة في المجتمع العربي المعطل bloqué تاريخيا والمصاب بتأخر مثلث : تأخر وسائل الانتاج، تأخر نمو الطبقات على النمط الغربي المتضمن بدوره لتأخر الصراع الطبقي محرك التاريخ ، وتأخر الثورة - وبالتالي -، الثورة تنسف نسفا الاوضاع السابقة عنها.

اي من مسلسل الثورات الغربية على البنى ما قبل الرأسمالية لم تفجر مجتمعا المعطل. وعندما انفجرت فيه لم تفجره لأنها كانت فوقية (مصر) وتعبيرا عن طبقات مصابة بكساح نوعى مزمن.

الثورة البرجوازية الحقيقية الوحيدة التي عرفناها كانت الاستعمار. لكن لم نعرفها الا كثورة مضادة :

-شوهت الصراع الطبقي مرتين :

- مرة بحرفة عن مساره الطبيعي : طبقة ضد طبقة، برنامج ضد برنامج، ليصبح صراعا دينيا - قوميا<sup>5</sup> ضد الأجنبي - الكافر. وهذا ما جعل البروليتاريا العربية المحدودة عددا وعدة تعيش انتصارات القيادات البورجوازية كانتصارات لها (تونس، مصر، الجزائر، المغرب) وبالتالي دورها النوعي. ومرة ثانية بتنميته، بدلا من التناقضات الاجتماعية : ظالم - مظلوم، للتناقضات العرقية : عرب - بربر (الجزائر، المغرب) الإقليمية، والطائفية في المشرق.

- جعلتنا، خاصة بواسطة البترول ونهب المواد الخام عموما، نعرف الرأسمالية لاكسيادة للانتاج البضاعي بل كسيادة للتبادل البضاعي، جعلنا الإستعمار سوقا له.

- فعل الاستعمار كل شيء ليبقى على الطابع البالي archaïque للحياة العربية حيث تتجاوز كل انماط الانتاج القديمة وتتعايش، فيما يشبه تنكيد الضرائر لا صراع الاضداد، جميع الايديولوجيات التي تناسب معها.

فى ظل هذا الاستعمار وحمائته لهذه البنى المشلولة والايديولوجيات المشلولة لعب الدين دورا مرموقا في ترسيخ التأخر المثلث وفي تخليف وعي الانسان العربي وشروط حياته معا.

- انزل بنا ردة حضارية مدمرة : الغزو الإستعماري للعالم العربي لم يعد لذاكرة الجماهير ذكريات الحروب الصليبية فقط بل انه هو نفسه كان صليبيا وكان يتظاهر بذلك. عندما احتل الفرنسيون سوريا حيا (اوركل) جنرال فرنسي قبر صلاح الدين قائلا : ها نحن قد عدنا يا صلاح الدين. وليس بدون مدلول كون هذه الحادثة متداولة على السنة العامة حتى فى المغرب العربي. لقد سمعتها عشرات المرات قبل أن أقرأها. وعندما احتلوا الجزائر هدموا او حولوا الى كنائس 2000 مسجد من بينهما المسجد الاكبر فى العاصمة - كتشاهو - وبعد الاستقلال حول من

جديد من ابرشية إلى مسجد. وعاشت الرجعية الجزائرية عاما كاملا على نبش تاريخه حتى أكثر تفاصيله تفاهة. وعلى تلقين الجماهير بأن الإستعمار لم يكن مشروعا للنهب الاقتصادي كما يقول الماركسيون. بل كان مشروعا لنهب مساجد الاسلام وتقويض اركانه...

أمام الإستعمار "الذي وجد في المسيحية... تنتمته الأكثر ملاءمة" (ماركس) لاذت الجماهير الشعبية العزلاء من كل سلاح للمقاومة الجدية بالتفوق في تقاليد الدين - القومية البالية. تقريبا نفس ردود فعل رعاة جبال الألب في القرن 12 على غزو الإقطاعية لهم في عقر دارهم لتدمير نمط حياتهم البطريقي.

في هذا الوضع اصبح نقد الاسلام او حتى نقد اقل طقوسه شأننا مرادفا لنقد المشاعر الشعبية، لنقد الشكل الجوهري لقوميتها وتقويض السلاح الوحيد الذي كان بيد القوى المحلية في دفاعها ضد هجمة الهمجية البورجوازية على همجيتها التقليدية. اسوا من ذلك بات نقد الاسلام مرادفا للخيانة الوطنية والتواطؤ مع المستعمر الكافر. كما ان نقد تخلف اللغة العربية (رسما، نحوا او مصطلحات) أصبح يعني الانتقاص من لغة القرآن، تجريدها من اصلتها ومؤامرة على سلاح صمود الشخصية الاسلامية - العربية في وجه الإبتلاع الغربي.

أصبح التحريض بالصراع الطبقي في المجتمع العربي، حيث في الواقع لم يكن له الا مجال هامشي، موصوما بكونه تصديعا لوحدة الامة بمفهومه الاسلامي : يشد بعضها البعض كالبنيان المرصوص.

هكذا أصيب الفكر النقدي العربي إزاء التراث الديني القومي بردة حضارية شاملة عادت به إلى مواقع كان قد تخطاها منذ زمان بعيد بالمعتزلة، باخوان الصفاء، بالفلاسفة العقلانيين والملحدون وبالأيديولوجيا الاسماعلية الثورية.

انتصر الدين على الفلسفة في العالم العربي مرتين : الاولى تحت الحكم السلجوقي والثانية تحت الحكم الأوربي الاستعماري حيث ولد شعار الإصالة "العودة إلى المنبع"، إلى السلف الصالح. هذا الشعار الذي راي في الفكر الثوري الاممي نفيًا له، عودة بشكل آخر للصليبية الاوربية ومؤامرة لاقتلاع الامة العربية من جذورها.

\* \* \*

لم تواجه الشيوعية العربية هذا الوضع ومضاعفاته بالكشف عن أسبابه علنا أمام الجماهير لكي تساعد على تحرير و عيها النقدي من استلابه الديني - القومي، لكي تساعد بقوة المثل، بممارساتها النظرية - العلمية الثورية على الاهتداء إلى سلاح فعال للمقاومة الايجابية للاستعمار بدلا من سلاح المقاومة السلبية العاجزة والمنطوية على نفسها وماضيها. لا فقط لم تعرف كيف تواجه مشكلة قومية أو اجتماعية من مشاكل المجتمع العربي. والاسوا أنها حاولت هي الاخرى، بانتقائية وديماغوجية، استخدام نفس السلاح لكنها مع ذلك بل بسبب ذلك لم تكسب إليها أي قطاع هام من الجماهير التي شمت بحاستها السادسة رائحة الإنتهازية<sup>6</sup>.

وصلت بها الانتهازية إلى حد إنكار، رغم الوقائع اليومية العنيدة. أن يكون للدين عندنا نفس الوظيفة التي أداها في أوروبا ما قبل اقتصاد الإستهلاك. وظيفة التخدير : "نعم ان الشقاء والالم هما قدر الانسان" (البابليون، القرن 13ع). تماما كما "لايعفي حذر من قدر". و"الفقر مفتاح الجنة". او، والكلمة هذه المرة لجلاد كومونة باريس تيير : "اريد ان اجعل تأثير رجال الدين كلي الجبروت. لاني اعتمد عليهم لترويج تلك الفلسفة الجيدة التي تعلم الانسان بأنه وجد في هذه

الدنيا الفانية ليشقى، لا تلك الفلسفة الاخرى التي تقول له، بالعكس : **تمتع بالحياة**<sup>7</sup>. وباختصار كانت وظيفة الدين في أوروبا وهي اليوم عندنا مناهضة الثورة. وفي هذا المعنى حدد معن أبو نوار، رئيس شعبة التوجيه المعنوي في جيش عمان الوظيفة التي اداها القرآن والانجيل في تنفيذ مجزرة عمان بنجاح "لقد طبعنا 60 000 نسخة من القرآن ووزعناها على جميع الجنود المسلمين. وقريبا جدا نأمل ان نوزع نسخا من الانجيل على جميع الجنود المسيحيين. اصبح كل جندي الآن يضع هويته في جيب ويضع القرآن في الجيب الآخر. لقد عملنا القرآن بحجم الجيب بحيث يمكن حمله مثلما يحمل الماركسيون الكتاب الأحمر. اعتقد ان الجيش محصن في وجه الماركسية الآن. وعلى استعداد لقتال الفدائيين. ان ماركسيينا والماركسيين الاسرائيليين التقوا معا. يقولون انهم يريدون اقامة دولة ديمقراطية علمانية، حيث ستتعايش في سلام الديانات الثلاث. من المحزن جدا ان يكون الماركسيون العرب والاسرائيليون هم الذين التقوا ولسنا نحن المحافظين عربا و اسرائيليين. اعتقد اننا في غضون 30 أو 40 عاما سنقاتل نحن والإسرائيليين معا الماركسيين"<sup>8</sup>.

ليس هذا الاستخدام للدين مصادفة عارضة. بل انه استراتيجية طبقية مدروسة : سيطرة الاقلية على الاكثية لن تدوم الا اذا قبلت بها الاكثية نسبيا، الا اذا استسلمت لها كقدر مقدور، الا اذا اصبح القمع داخليا والبوليس مرابطا في رؤوس الناس الذين لا سلطان لهم على حياتهم لكي يمنعم من وعي ذلك وضرورة الثورة عليه. ان الدين ما زال عندنا اداة فعالة لتحقيق استيطان القمع.

التعايش السلمي المعلن بين الشيوعية العربية والدين يعكس تعايشها السلمي مع الانظمة البروقراطية - الاتوقراطية وهدنتها المفتوحة مع الانظمة التقليدية. لقد تخلت نهائيا عن هدف قلب الانظمة البروقراطية بل تخلت حتى عن وسيلة نقدها، ويعكس بالتالي تخليها - في الواقع تخلت حتى قبل ان تشرع - عن صراع الطبقات لصالح الطبقات الذي هو جوهر الايديولوجية البونابرتية العربية (الناصرية، البورقبيية الخ.) التي تعرف فيها عجز الستالينية العربية عما كان يطمح عبثا في تحقيقه<sup>9</sup>.

هذا التعايش ليس الا تعبيراً عن اندماجها في الاوضاع الراهنة. كانت القيادات الشيوعية العربية ستصنع هذه الاوضاع المتعفنة لو لم تكن هي نفسها من صنعها.

لذا فان الحرب القادمة على اوضاعنا الراهنة، والتي تستمد بقاءها من الاحتفاظ بكل العاهات حتى باتت هي نفسها العاهات تجسدت أوضاعا، اما ان تكون حرية شاملة عليها وعلى فضلاتها او لا تكون.

هوامش :

1- النهار 30-6-1972.

2- في تاريخه القديم حاولت المعتزلة تطعيمه بالفلسفة اليونانية. لكن المحاولة باءت في نهاية المطاف بالفشل. وحاولت الاسماعيلية لا تطهيره من الطقوس الشرقية وحسب بل تحويله من دين سماوي الى دين للعقل الانساني الذي لا مرجع له من خارجه.

- 3- حاول بورقيبة الغاء تعدد الزوجات والغاء رمضان في 1959. وحاول احمد بن بلة الغاء عيد الاضحى في 1964، لكن المحاولتين فشلتا، لان الساعة للثورة لا للاصلاح.
- 4- انظر خطبة وداعه (9-6-1967).
- 5- القومية العربية لم توجد منفصلة عن الاسلام ابدا.
- 6- اشير هنا بشكل خاص الى تجربة ح.ش. الجزائري بعد الاستقلال وتجربة ح.ش. المغربي، حيث اصبح ابو ذر الغفاري وعمر بن الخطاب نجمي صحافتهما. لكنهما لم يصلا ابدا بسبب الجهل الى عبد الله بن ميمون القداح، الى الحسن الصباح، الى حمدان القرمطي او الى المعري !
- 7- ولهذا يقول ماركس : ”الدوجم الرئيسي (للدين) هو الزهد في الدنيا، التخلي عن الحياة وجميع الحاجات الانسانية“.
- ولهذا كانت الثورة، على النقيض، عودة للحياة، ارضاءا فعليا لجميع الرغبات وتحقيقا لجميع الاحلام الانسانية. لذلك ايضا كانت اللحظات الثورية، التي ما ان اومضت حتى انطقت في ليل هذا العالم القديم. لحظات ظهور شباب العالم، احظات يصبح فيها الاطفال راشدين ويعود فيها الراشدون اطفالا.
- 8- جريدة Washington Post بتاريخ 21-12-1971، ومن الواضح ان المقابلة تمت قبل ايلول 1970.
- 9- انهيار انقلاب ح.ش. السوداني في اقل من 72 ساعة بليغ في التدليل على هذا العجز الذي تعرف على نموذج ثورية البيروقراطية في انقلاب عسكري كوميدي-تراجيدي وعجز عن توفير حتى اقل اسباب النجاح المألوفة لمثل هذه الانقلابات.

## VI صراع الطبقات في العصر العباسي

الثورة هي الذكرى والذاكرة الاعمق لشعب من الشعوب. ذاكرة ثورتنا القادمة التي سيكون عليها ان تحل، بعضها غير السحرية : سلطة المجالس الشيوعية، جميع التناقضات المترامية والمزمنة، وان تطيح في وقت واحد بالاستبداد دون ان تسقط في الليبرالية، وان تقضي على التخلف دون ان تسقط في عبادة اقتصاد الانتاج وديكتاتورية الاستهلاك، يجب ان تكون ذكرى ثورات الجماهير العربية والاعجمية التي ناطحت سماء الطغاة اربابا، افرادا وطبقات اكثر بكثير مما تجرا عليه أجرأ الشعوب في القرون الوسطى وقاومت تسلط الاسلام على العقول وتسلط اصحاب الاقطاعات على الأرض.

عندما تعود البروليتاريا العربية الحديثة الى تاريخ اسلافها الثوريين فلن تريد، وما ينبغي لها، التعرف على مطالبها النوعية الاكثر تبلورا، راديكالية وشمولا في مطالبهم المحدودة بحدود وعيهم وحدود عصرهم. بل لتذكر نفسها بان اسباب ثورتهم على الدولة ودينها واستغلالها وطغيانها ما زالت حاضرة، رغم اختلاف الشروط التاريخية، في ثورتها القادمة التي يجب ان تكون تحقيقا لمشروع الانسان الكامل الذي لن يقبل بديلا عن امتلاك العالم والزمن للاستمتاع بالحياة المتحررة.

ما كان عند الاسلاف طموحا سديميا يجب ان يصبح اليوم عند البروليتاريا مشروعاً واعياً. ولقاء المشروع الثوري الراهن بذاكرته القرمطية، البدائية سيتم حتما على اساس تطهيرها من بقايا استلابها الديني.

\* \* \*

ذاكرة جماهيرنا المظلومة التي تغير سيادتها ولم تتغير شروط حياتها هي بالاخص الايديولوجيا الثورية الشعبية الاسماعلية وانتفاضاتها المتعاقبة في العصر العباسي.

\* \* \*

رافق انتقال السلطة من الارستوقراطية العربية (القيسية واليمينية) التي سادت على الامبراطورية الاموية الى الارستوقراطية (العربية، الفارسية والتركية) التي سادت على الامبراطورية العباسية، انتقال المجتمع الاسلامي من مجتمع عشائري عسكري يغلب فيه نمط الانتاج الزراعي ولا تلعب فيه الصناعة والتجارة الا دروا هامشيا الى مجتمع تعدى عرفيا وفكريا تغلب فيه التجارة والتبادل البضاعي ومستقطب بين طبقتين : طبقة الخاصة التي تملك المال والوقت الذي تبذره في الجنس واللهو والقنص وطبقة العامة التي يملكها الحرمان الشامل والسخره.

\* \* \*



طبقة الخاصة نعنى بها مجموع مراتب الارستوقراطية السائدة والفئات المستغلة المرتبطة بها في العصر العباسي : 1- البيروقراطية وتتكون من : الخليفة، الرئيس الزماني والروحي للدولة وهو لا يُسأل عما يفعل<sup>1</sup>، الوزير، الوسيط بين الخليفة ومراتب البيروقراطية الادنى، القاضي، القيم على تطبيق الشريعة والقضاء بين الناس، حاشية البلاط وموظفوه (الجلادون، الخدم<sup>2</sup>، المنجمون) قواد الجيش، العمال، ممثلو الخليفة فى الولايات، ضباط الشرطة، المسؤولون عن الامن داخل المدن، والجباة و السجانون، وموظفو ديوان الإنشاء.

2- اصحاب الاقطاعات، المالكون المقاريون الكبار الذين استولوا على اراضي الفلاحين بواسطة الاجاء.

3- التجار، وهم فئة واسعة، غنية ومتداخلة مع المالكين العقاريين اذ ان قطاعا واسعا منهم كان يوظف رؤوس امواله في تملك الاراضي.

4- الانتليجانسيا وتضم الاطباء، الكتاب، المغنون الشعراء - شعرونا كانوا دائما فيما ندر شعراء دولة ! - المترجمون، فقد كان المنصور مثلا يدفع لحنين المترجم 250 دينار شهريا ووزن الكتاب الذي يترجمه ذهباً.

5- رجال الدين او العلماء كما كانوا يسمون عهدئذ.

\* \* \*

وهم خمس مراتب أساسية :

1- القضاة.

2- الائمة، وقد لعبوا دور الاذاعة اليوم فى تطويع الرعية للخليفة الذي يضعون الولاء له بمنزله الايمان.

3- الفقهاء الذين كانوا قادة الرأى، موجهى افكار الناس ومفبركي الاحكام والاجتهادات لمن يحتاجها من رجال السلطات او من التجار. وكانت لهم هيبه روحية فى نفوس الناس : ”اين لذة الملوك من لذة ما نحن فيه. لو فطنوا لقاتلونا عليه“ (أبو حنيفة).

4- المحدثون، ومهمتهم، الا القليلون، اختلاق الاحاديث لتبرير نزوات الحكام او مطالب هذا او ذاك من الاحزاب المتنافسة ويبدو ان كل حزب كان له محدثوه.

5- الوعاظ، الذين كانوا يدخلون على الخلفاء ليعظوهم معطين لانفسهم ولهم الشعور براحة الضمير. يشبه دورهم دور كاهن الاعتراف فى المسيحية.

\* \* \*

كان رجال الدين حجر الزاوية لسلطة الأتوقراطية الخلاقية. بدون فتاويهم ودراساتهم لم يكن الخلفاء بقادرين، بكل تلك السهولة، على تصفية المعارضة بتهمة المروق عن الدين، ونادرا ما اقدم خليفة على دق عنق معارض ديني او سياسي قبل الحصول على فتوى شفوية او كتابية من واحد او أكثر من العلماء المشهورين في عهده.

غالبية رجال الدين كانوا متداخلين مع الدولة الجائرة، الا قلة من الفقراء والأتقياء منهم كانت تشكل المعارضة السلبية لهم وللدولة. مضمون معارضتها : الاحتجاج على مداخلة رجال الدين للسلطان الجائر (الدولة). وأعتقد أن الأحاديث الموضوعية، ما في ذلك شك، للتدبير بتواطؤ رجال الدين ورجال الدولة على حساب الشعب هي من وضع هذه المعارضة وعامة الشعب. مثل : ”صنفان من امتي إذا صلحا صلحت الأمة وإذا فسدا فسدت : السلطان والعلماء“ و”هلاك أمتي : عالم فاجر وعابد جاهل“.

قويت هذه المعارضة الدينية الشعبية في القرن الثالث حيث كان تواطؤ رجال الدين والبلاط ضد ثورات العامة جليا إلى درجة ان الفقيه الفقير ابو بكر الاجري تجاسر على تأليف كتابه : اخلاق العلماء وادابهم الذي ضمنه مقارنة لاذعة بين علماء السلف الذين لم يتقربوا من السلطان لان ”السلطان من لا يعرف السلطان“ عندهم.

والذين كانوا يرون الجهاد ”كلمة حق تقال في وجه سلطان جائر“ وبين علماء عصره : ”الفسقة، الفجرة“ الذين ”يداخلون السلطان الجائر“ و”يحتقرون ما دونه من العباد“.

وفي كلمات نارية شهر بحبهم للدين واقبالهم على المال والشهرة وحرصهم على مجالسة الملوك وادارة ظهرهم للدين... مستشهدا بعشرات الاحاديث، التي اسهم هو نفسه في وضعها، والتي تحرض العامة على رجال الدين والسلطان، مثل : ”يكون عليكم امراء تعرفون منهم وتتكرون، فمن انكر فقد بريء، ومن كره فقد سلم. لكن من رضي و تابع فأبعده الله“.

في القرن الخامس صنف ابن عبد البر القرطبي كتابه : جامع بيان العلم وفضله. اغنى فيه بوقائع عصره وثيقة اتهم الاجري لعلماء القرن الثالث، قائلا : ”لم يزل الفساد متزايدا على ما ذكرنا اضعافا مضاعفة. فلا حول ولا قوة الا بالله“.

\* \* \*

في الامبراطورية الاموية كان الفرز الاساسي عنصريا : بين العرب والموالي. فأصبح في الامبراطورية العباسية اجتماعيا : بين الارستوقراطية والعامة. وبين ذوي السلطان والذين لا سلطان لهم على استخدام حياتهم.

في العهد الجديد نما التنظيم الاداري، التجاري، الزراعي والصناعي نموا ضخما. غدت بغداد مركز التجارة العالمية توريدا وتصديرا. اصبحت الدولة المركزية، المراتبية و المنظمة اداة نهب داخلي وخارجي لم يسبق له مثيل. فقد بلغ دخل الدولة السنوي في عهد الرشيد، على حد تقييم ابن خلدون، 70 مليونا و150 الف دينار. هي موازنة ضخمة بالمقارنة مع موازنات الدولة القديمة. مصادر هذه الموازنة : الخراج على الارض، الجزية المفروضة على اهل الذمة والشعوب المقهورة، الضرائب المفروضة على اهل الصناعات والحرف والزكاة....

لم يعد الخليفة، كما كان في العهد الاموي، مجرد شيخ قبيلة مهيب بدون وزير طقوس يستقبل

الناس ويجلس للفصل في المظالم بين العامة، بل تحول إلى امبراطور تبنى تقاليد البلاط الفارسي والرومي من اتخاذ الوزير الى الاحتجاج عن الناس.

بتعقد مراتب السلطة ازداد اضطهاد عامة الشعب. لكن الاضطهاد لم يكن في الواقع، مقصورا عليه بل كان معمما ومراتبيا : تمارسه بدون ضابط المرتبة العليا ضد المرتبة الادنى : الخليفة يصادر املاك الوزير، والوزير يصادر املاك رؤسياه. والعمال (الولاة) يصادرون املاك الاغنياء وحياة الفقراء.

لقد كان ديوان المصادرة سيفاً على اعناق الجميع بما في ذلك الخلفاء انفسهم على عهد استبداد قادة الجيش الاتراك بالسلطة.

هذا الديوان شاهد اثبات آخر على الدور المضاد للتقدم التاريخي الذي لعبه وما يزال الاستبداد الشرقي : تحكم الفرد الحاكم في المراتب البيروقراطية وتحكم هذه الاخيرة في الطبقة. من هنا اسبقية ظهور الدولة ظهورا واهمية على الطبقة وبالتالي استقلالها عنها وتحكمها فيها.. عكس المسار العام لبروتسييس التاريخ الغربي. في اليونان كانت السلطة تعبيرا عن راي السادة الذين يختارون قيادتهم من بينهم. اما دولة الاستبداد الشرقي فهي مغلقة عن كل ديمقراطية وحوار، السلطة فيها لا تتبع عن مجلس شيوخ، او مجمع كرادلة او برلمان بل من حد السيف ومن ثورات القصور. الخلفية هو الذي يختار ولي عهده على هواه، لا حسب تقليد مرعي يشجع على الاستقرار ويقتصد حروب الاسر، ياخذ له البيعة الاسمية من حاشيته، قواد جيشه ورجال دينه بمحضر السيف والنطع والجلاد !

السلطة عبر التاريخ العربي كله كانت - وما زالت - دائما فوق القانون، سواء كان قانونا وضعيا، ومن وضعها هي نفسها، او قرآنا. ولم ينجح كفاح المعارضات القديمة والحديثة لكي يصبح القانون فوق السلطة !

لم يكن مثل هذا النظام الاستبدادي الفردي يساعد على تشكيل طبقة سائدة متماسكة تغلب مصالحها الشاملة على المصالح الفئوية لهذا او ذاك من اجنتها او افرادها، وكل انتعاش لطبقة اجتماعية، مثل انتعاش التجار وملاك الارض في العصر العباسي الاول، انما هو انتعاش ظرفي على رحمة نزوة من نزوات الخليفة التي لا يستطيع احد ان يتنبأ بها او يتعرض عليها (نكبة البرامكة مثلا).

\* \* \*

في ظل الاستقرار النسبي الذي تميز به عهد الرشيد والمأمون "تكونت طبقة من التجار تملك الاموال الطائلة، وقد بلغت ثروات البعض الملايين وظهرت فئة رأسمالية نشطة، وكونوا انواعاً من الشركات مثل شركة الضمان (تشبه شركة المساهمة) وشركة المفاوضة (حيث تبقى رؤوس الاموال مستقلة)، وشركة الوجوه، وتكون الاختصاص بين التجار"<sup>3</sup>.

فعلا تنوعت التجارة وتخصصت اي ان تقسيم العمل فيها بلغ درجة عليا. فقد كانت واردات بغداد متنوعة جدا، من الصين : البورسلين، الحرير والمسك. من الهند وجزر الملايا : البهارات، العطور، الاصبغة، المعادن، العسل، الشمع والفرو. ومن السويد وروسيا : العبيد البيض للاستمتاع الجنسي. من افريقيا : العاج، الذهب والعبيد السود للاستعمال المنزلي والزراعي.

نشطت الصناعات، تنوعت وتخصصت هي الأخرى : صناعة الأقمشة، المرايا المعدنية، الورق، الجواهر، الحلبي، صناعة الساعات، تجليد الكتب، صناعة العطور، النسيج والحريز خاصة في الكوفة.

قامت القصور في بغداد التي كانت على عهد الرشيد تعد مليوني ساكن، نفس عدد سكان باريس في 1871. احتلت أرستوقراطية الدم والمال حي الرصافة. وغدت بغداد مدينة الملاهي حقا التي ينفق فيها الخلفاء، الوزراء، الأغنياء والأدباء فائض وقتهم في الأفراح المستمرة، بينما سواد الشعب الذي لا مال ولا وقت - بالتالي - لديه غارق في الأتراح المستمرة. هب رجال الدين يفتون للارستوقراطية والخليفة بشرب اصناف من الخمور (الجعة، الطلاء، نبيذ التمر)<sup>4</sup> ويتحايلون على الشريعة لتسهيل المعاملات الربوية استجابة لرغبة التجار. وبعض رجال الدين انفسهم كانوا تجار !

لم تكن بغداد باذخة وحسب بل كانت مبدرة : الرشيد ينفق على طعامه 10 آلاف درهم يوميا. ويوميا يعد له الطهارة 30 صنفا من الطعام (المسعودي). وعند زفافه بزبيدة كان يهب للناس اواني الذهب مملوءة فضة واواني الفضة مملوءة ذهباً. وغالى في تزيينها بالحلي عجزت عن المشي لكثرة ما كان عليها من الجواهر.

كان البيروقراطيون والأغنياء على دين خليفتهم فانتشر التبذير بينهم، وقويت شهيتهم للنهب.

كان هذا التبذير استفزازا غير حكيم لبؤس الجماهير الكادحة في المدن التي كانت على حافة المجاعة : اجرة عامل البناء ثلث درهم في اليوم. بينما اجرة الجندي درهم. ودخل القاضي 8 دنانير يوميا. اما عن بؤس العاطلين والفئات الهامشية كالشطار والعيارين، التي افرزتها هجرة الريفيين إلى المدن واختلال التوازن بين عدد السكان وامكانيات الاستخدام، فحدث ولا حرج !

ظل الريف بطريقيا، بدويا وفقيرا. والقصة المروية في الاغانى دلالة، فقد شهد الشاعر البدوي : ناهض بن شولة عرسا بمدينة حلب فاصيب بالجنون لما هاله من الوان الطعام والملابس والآت الغناء ومظاهر البذخ الفارسي.

كان وضع طبقة العوام : الموالي، العبيد، عمال الزراعة، الفلاحين، العمال (الفعلة)، اهل الصناعات والحرف وجماهير البدو، لا يطاق. ومع ذلك فقد كانت هدفا للنهب الهتمي : نهب الحكومة المركزية وممثليها في الولايات. ولعل اتهام الرشيد<sup>5</sup> لعامله على الشام عندما ادخل عليه مكبلا بالاغلال، ابلغ من الاستشهادات والاحصاءات التقريبية : "اوليتك دمشق وهي جنة بها غدر تتكفاً امواجها على رياض كالزرايبي، واردة منها كفاية المؤن الى بيوت اموالي، فما برح بك التعدي (...). حتى جعلتها اجرد من الصخر واوحش من الفقر" (المسعودي) وعندما صادر نفس الرشيد اموال عامله بخرسان، علي بن عيسى، حملت إليه على 1500 يعبر، نهبت من عرق الناس وخبزهم اليومي.

\* \* \*

من البديهي أن التغييرات في المجتمع العباسي لم تكن اقتصادية وحسب بل كانت انقلاباً شاملاً على جميع الأصعدة : الاقتصادية، السياسية، العرقية والأديولوجية. التعدد العرقي والإجتماعي كان يتطلب تعدداً فكرياً وسياسياً : هكذا فتح هذا المجتمع التجاري نوافذه لكل الرياح. خاصة لرياح الفلسفة اليونانية التي حاول المستنيرون من المفكرين المسلمين عقلنه الإسلام بها :

التوفيق بين النقل والعقل، بين الفكر الأرسطوطاليسي والشريعة المحمدية. ومن الذين أضطلعوا بهذه المهمة المعتزلة. والمعتزلة هم التركيب الذي أعطاه لقاء نهوض البورجوازية التجارية بالفكر اليوناني. فالإنسان، في تحليلهم، خالق أفعاله كما أن التاجر خالق ثروته. والله هو مبدع قوانين الكون العامة أما الشؤون الصغيرة، الطبقات الأراضية فقد تركها لعناية الحرية الإنسانية. تماماً على صورة الملك الدستوري الذي كانوا يحلمون به قبل أن تنزل على رقابهم سيوف المتوكل<sup>6</sup>. كان الباب أيضاً مفتوحاً أو موارياً أمام تأثير الديانات والهراطقات الغارسية الوثنية وغيرها التي قهرها الإسلام كما قهر شعوبها.

فلا عجب إذن أن تكون جميع المدارس، الفرق والهراطقات الثورية والرجعية التي شكلت العمود الفقري للحضارة العربية، ظهرت أو تحددت ملامحها واختياراتها في مناخ الصراع الاجتماعي المحتدم على الصعيدين السياسي والأيديولوجي لهذا العصر الذي تمكن مقارنته، مع حفظ الفوارق، بمصر الأنوار في القرن 18ع. وفيه بدأ الصراع الطبقي يتمم باسمه. وفيه ولد رماد الشيوعية، أجداد البروليتاريا العربية الحديثة، التي شرعت في الصراع باسم صراعتها الطبقي في حلوان والدار البيضاء... وقريباً في كل مكان.

\*\*\*

لامر ما أنطلقت معظم الهراطقات والحركات الثورية في العصر العباسي من الكوفة، باريس القرن 19ع، لقد كان الفرز والصراع الطبقي فيها واضحين: الزراع الكبار، التجار، البيروقراطية ورجال الدين في قطب. وفي القطب الآخر لفييف العامة من الموالي إلى الزنج مروراً بالعمال والشطار والفلاحين وهم إجراء لملكية لهم أو اقتنان محرمون حتى من الحرية الشخصية.

”كان في الكوفة اقلية تملك الأرض الواسعة. وكان المالكون عرب وغير عرب. وكان الفلاحون خليطاً من فرس وانباط وعرب، لذا كان طبيعياً أن يكون الانقسام فيها على أساس اقتصادي. كما أن الكوفة مركز تجاري، لوقوعها على طريق الحج، كما أنها مركز صناعات مهمة كصناعات العطور والنسيج، مما كون فيها طبقة صغيرة ثرية من ارسوقراطية التجار واصحاب المعامل، اضافة الى ارسوقراطية الزراع، فكان **تدمير الفلاحين والعمال قويا**. ثم أن الكوفة مركز ثقافي هام انتشرت فيه الفلسفة اليونانية وحركت الزندقة بين المتقنين فوسعت الشكوك بينهم وزعزعت ارائهم الدينية الاسلامية“.(ع. الدوري).

في هذا المجتمع المستقطب خلت التقاليد البطريقية، الدينية والقومية التي كانت تطمس الصراع الطبقي مكانها للتبادل البضاعي والصراع الاجتماعي.

لم يعد معيار الصلاح هو التقوى كما كانت في عهد محمد وخلفائه: ابو بكر، عمر وعلي. ولم يعد الدم العربي كما كان في العهد الاموي بل اصبح ارسوقراطية المال والدم (التجار... وآل العباس): ”لا بد لكم من كتاب وعمال واعوان، فاستعينوا بالاشراف واياكم وسفلة الناس، فان النعمة على الاشراف ابقى وهي بهم احسن، والمعروف عندهم اشهر والشكر منهم اكثر“ (من وصية يحيى بن خالد البرمكي لبنيه) (المسعودي).

وأمام التخلي الفعلي الصريح للخلفاء والاغنياء ومعظم رجال الدين عن الدين، فقد العزاء الديني قوة ضبطه لجموع البائسين.

وبدت سيطرة الخاصة على العامة بدون قناع، واصبحت بالتالي عرضة لنقد اللسان ونقد السلاح.

تلك هي حال المجتمع الاسلامي في نهاية القرن الثاني الذي فقد غطاءه الديني للحاكمين ولجماعة الديني للمحكومين. فاختلف توازن العام وتساعد فيه الصراع بين الطبقات الظالمة والمظلومة.

\* \* \*

على امتداد القرون الثالث، الرابع والخامس، انفجر هذا الصراع حروبا اهلية مختلفة هدفا سياسيا وتركيا اجتماعيا عن الحروب الاهلية الشيعية والخارجية التي دارت رحاها في ظل الامبراطورية الاموية وضدها. لم يعد تنصيب آل علي او انتخاب إمام كفاء (الخورج)<sup>7</sup> هو الهدف الجوهري المعلن للحرب الاهلية بل بات الاستيلاء الجماعي على الارض، المساواة في الثروة، المساواة بين الرجل والمرأة، اقامة حكومة الشورى (الديموقراطية)، عبادة العقل والتمتع بالحياة هي مضمون البرنامج الذي على شرط وضعه موضع التطبيق، يأتي للحكم الامام (الحزب الثوري) اسما عليا كان ام مستقلا مثل صاحب الزنج. لم يعد الامام الشيعي، كما كان عند الاوائل، انتسابا اسرويا إلى آل علي بل اصبح ولاء فكريا للاسما علية الباطنية والتزاما ببرنامج ثورتها : ملء الارض عدلا بعدما امتلأت جورا بعد الاطاحة بالدولة العباسية ودينها بالنسبة للراديكالين أو بتفسيره السني بالنسبة للمعتدلين.

من السخف والادعاء، كما فعل بعض العرب والمستشرقين، بان هذه الصراعات كانت دينية، فوقية ومستقلة عن الطبقات الاجتماعية ومطالبها. بل انها، كما سنرى، وكما لاحظ انجلس "حركات ولدت من اسباب اقتصادية رغم انها كانت تحمل قناعاً دينياً" احيانا شفافا جدا، لانها لم تكن قادرة على مواجهة عدوها بدونه. وفي امكاننا اليوم تحديد الفرقاء الطبقيين لمعظم الفرق والهزطقات التي تصارعت في ظل الدولة الاسلامية من محمد إلى عبد الناصر.

---

هوامش :

- 1- تماما كما هو الآن حتى في الجمهوريات الاشتراكية.
- 2- في القرن الثالث.
- 3- مقدمة في التاريخ الاقتصادي العربي، تأليف الدكتور عبد العزيز الدوري (دار الطليعة). والدوري مؤرخ خلدوني واسع الاطلاع، نادر بين المعاصرين من المؤرخين العرب. لولا انه، ربما لاسباب ادولوجية، يتخلى احيانا عن عقلانيته التي تعطي الانطباع بالصراحة، ليسقط في الوعظ الاخلاقي. وحبذا لو يترك كرسي الجامعة ليتفرغ لكتابة التاريخ الاقتصادي العربي برويا تاريخية نقدية لا تتنازل للعواطف حتى النبيل منها.
- 4- حلل رجال الدين للارستوقراطية السائدة شرب اصناف من الخمر. ظهرت هذه الفتاوي، اول ما ظهرت، في بغداد الحنفية وفي الاندلس الظاهرية. حللت الحنفية شرب بعض الخمر المستخرجة من التمور مثل الطلاء (ماء الحياة). في الاندلس نجد المذهب الظاهري، مذهب داوود الظاهري، الذي كان المذهب الرسمي للامويين في الاندلس طوال 150 عاما، والذي سمي بالظاهرية لانه ينكر التأويل للنصوص الدينية، كما ينكر القياس، الذي رأى فيه بحق جمودا لا يطاق، لانه يطبق حالات لاحقة مختلفة نوعيا، زمانا ومكانا وشروطا تاريخية، على حالات سابقة عزلت من مضمونها الفعلي. حلل المذهب الظاهري شرب كل اصناف الخمر ما عدا النبيذ الذي كانت تشربه قريش حين نزول آية التحريم، لان ال في "وحرمت عليكم الخمر"

عهدية، اي الخمر العينية، اياها.

اما المالكية، وهي على العموم مذهب الريف الفقير والمتقشف والمحافظ فقد حرمت جنيع اصناف الخمور وباي كمية كانت، لان "ما اسكر كثيره فقليله حرام". وهذا يفسر انتشار المالكية في صحراء الجزيرة وبين ارياف وبرابرة شمال افريقيا. وانتشار الحنفية في بغداد ومختلف المدن الاسلامية وانتشار الظاهرية في الاندلس.

سخر آية الله الزمخشري، صاحب التفسير الشهير باسمه من جميع المذاهب الفقهية بهذه الابيات :

ان قلت حنفا، قالوا عني باننسي : ابيح لهم شرب الطلاء، وهو الشراب المحرم !  
وان قلت : مالكيا، قالوا عني باننسي : ابيح لهم اكل الكلاب وهم هم !  
وان قلت : حنبليا، قالوا عني باننسي : حلوا لي بغيض مجرم !  
وان قلت : شافعيا، قالوا عني باننسي : ابيح نكاح البنت والبنت تحرم !  
وان قلت : من اهل الحديث وحزبه : يقولون : غير ليس يدري ويفهم !  
الحنفية تبيح شرب الطلاء. المالكية تبيح اكل الكلاب. والحنبلية تقول ان الله مجسم له يد مادية ويجلس على كرسي مادي. والشافعية تبيح الزواج بالبنت اذا كانت وليدة زناء لا زواج شرعي. وأهل الحديث غير اي حمير ! (الرخص من جميع المذاهب).

5- على ان النهب في عهد المأمون، المعتصم وهلم نزولا كان اشرس !

6- سنعود لهذا الموضوع بالتفصيل في كراسنا القادم.

7- كان بين الخوارج جناح فوضوي ينكر الامامة (الدولة) ويقول لا داعي للامامة وانما حسب الناس ان يتعاطوا الحق بينهم.

## VII موقف الشيوعية العربية الاولى من الدين ؟

قبل ظهور المعارضة الشيوعية الاسماعلية، واجهت الدولة الاسلامية معارضاة اصلاحية تختلف راديكالية واعتدالا تبعا لخلفتها الاجتماعية والشروط الفعلية التي ولدتها. من بينها وليس اكثرها اهمية، حزب القدريية<sup>1</sup>، حزب الاختيار الذي رفع شعار : الانسان مخير لا مسير. والشر ليس قضاء وقدر من الله بل تقدير من الحكام : ”هؤلاء الملوك يسفكون دماء المسلمين، وياخذون اموالهم ويقولون : انما تجري اعمالنا على الناس بقدر الله تعالى“. (معبد الجهمي).

عبرت للقدريية عن مصالح الاتقياء والفقراء من رجال الدين، تلاميذ ابي ذر الغفاري، الذين هالهم ابتعاد السلطة الاموية عن بعض المبادئ السوائية في الاسلام البدائي فكانوا لسان مصالح العامة والعناصر المدنية في دمشق : من المثقفين المستنيرين، اهل الصناعات والحرف كما كانوا صدى لمطامح الموالي والقبائل العربية الضعيفة غير القرشبية. هؤلاء جميعا كانوا يطمحون لحكم دستوري يكونون هم اقوى منه لاستبداله عندما لا يخدم مصالحهم ومثلهم اي يخرق الدستور : الشريعة. هذا هو معنى تصريح زعماء القدريية :

”الامامة تصلح في غير قرشبي. واذا اجتمع قرشبي ونبطي، قدمنا النبطي اذ هو اقل عددا واضعف وسيلة، فيمكننا خلعه اذا خالف الشريعة“.

في الخندق المقابل للقدريية تفق الجبرية : ”الانسان مسير لا مخير“، حزب النظام الجبرية تنفي الممكن في تعريفها للواقع واعترافها به، تحصر الانسان في المعطى : ”وما اصاب من مصيبة الا باذن الله“. وتجعله اسير الوضع المقدر : ”قل لن يصيبنا الا ما كتب الله لنا“. وبذلك فهي فلسفة المحافظة علي النظام - مثل الوضعية المعاصرة!- ومناهضة التجديد، الاصلاح وبالاخرى الثورة.

اما عند القدريية فالواقع ليس قدرا مقدورا بل امكانية ضمن امكانيات قابلة للتحقق التاريخي. مهمة الناس : اختيار الامكانية الانسب لمصالحهم ونفي الامكانيات المناهضة لمصالحهم. لكن اذا تحققت هذه الاخيرة، وهو ما حصل بتحقق سلطة بني امية، فما العمل ؟ هل تقبل الجماهير الوضع القائم باعتباره شرا، وشر ما فيه انه لا بد منه،(الجبرية) ؟ ام ترجا الحكم له او عليه الى يوم الحساب (المرجئة) ؟ اما القدريية فتجيب : كلا، علينا ان نتجشم تحريض الناس عليه.

هكذا تكون القدريية حزبا ينقصه، بالتاكيد، التماسك، الراديكالية القصوى، التنظيم والبرنامج. لكنه حزب ينقد الواقع ويطمح ليغيره نحو الاصلاح. وبذلك يكون رائد الاحزاب الثورية اللاحقة في العصر العباسي التي سوف لن تكفي بمجادلة النظام القائم بالتي هي احسن (اللسان) بل ستضيف الى جدال اللسان جدال السيوف، وجدال السيوف خير جدال !

\*\*\*

فشل المعارضاة الاصلاحية<sup>2</sup> في تحقيق برنامجها، الشروط الاجتماعية الجديدة، ازمة النظام



العباسي، ضعف مركزيته وزوال هيئته شيئا فشيئا هيا الظروف للمعارضة الثورية الهادفة لا لتلطيف جور النظام بل لقلبه.

عبرت هذه المعارضات الهدامة عن نفسها مرة في شكل تصوفي (الحلاج، زعيم الحلاقين)، ومرة في شكل ردادات دينية او حروب قومية ومرارا في شكل انتفاضات مسلحة وثورية حتى النهاية الممكنة. وهذا الشكل الاخير هو الذي يهمننا الآن.

\* \* \*

الثورة الشيوعية الام التي الهمت كل الثورات الراديكالية، في العصر العباسي، هي ثورة بابك الخرمي (201-223هـ). التي اندلعت ردا على حنث الثورة العباسية وتكرها لبرنامجها. مساواة العرب بالموالي في العطاء والوظائف والعودة الى اممية الاسلام البدائي الذي لا يفرق بين عربي واعجمي الا بالتقوى. عمليا ترجم العباسيون مساواة العرب بالموالي بالمساواة بين الارستوقراطية العربية والفارسية. واممية الاسلام باممية التجارة.

طوال 22 عاما حرض دعاة الثورة نظريا وعلميا جماهير الفلاحين الاجراء على الفتك باصحاب الاقطاعات والاستيلاء الجماعي على املاكهم. كما حرضوا عوام المدن على الفتك بالتجار ونهب مخازنهم

كانت الثورة الخرمية طموحا جسورا لتقويض الارستوقراطية السائدة العربية والفارسية بثورة الجموع المظلومة من كل القوميات والمعتقدات وتشبيد مجتمع جمهوري لا مكان فيه لاستغلال قومية لاخرى، لاستغلال طبقة لاخرى، لاستغلال الرجل للمرأة ولا مكان فيه للقومية او للدين وتحاريمه، شعاره: "اباحة النساء على الرضى منهن واباحة كل ما يلد للنفس وينزع اليه الطبع ما لم يعد على احد بضرر" (المقدسى - انظر الحركات الفكرية فى الاسلام، بندلي جوزي).

\* \* \*

سنجد هذا الاتجاه الجمهوري، السوائي egalitaire والعلماني في الحركات والثورات الاسماعلية (الباطنية)<sup>3</sup>. العديدة والراديكالية، بدرجات مختلفة، من القرمطية الى الفاطمية<sup>4</sup> مروراً بالحشاشين والدروز (الموحدين) والزيدية اليمينية.

لان الحركات الاسماعلية غطت، مكانا، مساحات شاسعة تمتد من البحرين شرقا الى المغرب غربا. وغطت زمانا، ثلاثة قرون. وضمت تجمعا طبقيامميا عربيا وتأثرت بجميع الملابس الطرفية، فانها كانت تنطوي على اجنحة متعددة تختلف راديكالية واعتدالا باختلاف المكان والزمان والنوعية الاجتماعية للفئات المعنية لكن مما لا ريب فيه ان الجناح الفارسي للحركة كان اقصى يسارها خاصة في الموقف من الدين. وهو موقف اقرب الى العقلانية وابتعد عن قتل الجسد واحتقار المادة، تماما كما لعب نفور الجزيرة العربية من طقوس الاسلام خاصة الزكاة دورا في تجدير الجناح القرمطي للحركة ونجاحه في البحرين

\* \* \*

منظر الحركة الاسماعلية الاول هو عبد الله ابن ميمون. وكان عقلا نيا لامعا مطلععا على جميع الفلاسفات والاديان. ولا شك انه ترك بصماته على الحركة من مبتدئها الى منتهاها، وهو القائل : ”ان الائمة والاديان والاخلاق ليست الا ضلالا وسخرية“.

اهم ما اعطت الاسماعلية : الدولة الفاطمية، الجمهورية القرمطية في البحرين، حركة الحشاشين في فارس وسوريا الخ.. وانجبت على الصعيد الفكري مدرسة اخوان الصفاء التي يمكن تشبيهها بفلاسفة عصر الانوار، واثرت قليلا او كثيرا في المع الشعراء والفلاسفة العرب الذين عايشوها : المتنبي، المعري، ابن هاني... .

ليس من الصعب الحدس بان الاسماعيلية التي حلت الدين تحليلا تاريخيا نقديا وردت للفلسفة اعتبارها قد لاقت هوى في نفوس المفكرين اللامعين. فقد اشار المقرئ الى ان الاسماعلية ترى ان الشرائع لم تكن الا لتقليد العامة وصيانة المصالح الدنيوية للخاصة من الحكام وذوى السلطان، اما المتفقون فلا حاجة لهم بها.

كما انه من السهل كذلك افتراض انها صادفت هوى في نفوس العرب (خاصة البدو) الذين لم يعتنقوا الاسلام الا خوفا او طمع ولم تفسح لهم الارستوقراطية الحاكمة مكانا بينها، وفي نفوس الشعوب الوثنية الاخرى التي لم تدخل الاسلام اصلا او دخلته لدفع الاضطهاد الديني والاجتماعي. ولعل المعري عبر على هوى هؤلاء بقوله :

ان الديانات القت بيننا إحننا      و علمتنا افانين العداوات  
وهل ابيحت نساء الروم للعرب      الا بأحكام الديانات !

وهناك قرابة بين عبادة العقل الاسماعيلية والوثنية التي كانت دين الناس الاحرار وغير المحرومين. على عكس الديانات شبه التاريخية.

امام استبداد الدولة الاسلامية التي استبعدت من حقل نظرها كل معارضة او حتى اعتراض. لم يستطيع الحزب الاسماعيلي الا ان يكون حزبا سريرا. وبالنتيجة بيرقراطيا شديد وعديد المراتب : 7 مراتب آخرها الاحاد والاباحية الكاملة.

الحزب الاسماعيلي حزب طليعي غير مفتوح الا للكوادر التي تعرف القراءة والكتابة وتتمتع بدرجة معينة من الوعي النقدي ازاء الايديولوجيا المعادية والنظام القائم. وللحزب ما يمكن تسميته بمدرسة كوادر يجذر فيها وعي المنتمين الجدد ويزودهم بمعلومات مراتبية عن برنامج الحزب وموقفه من قضايا الدين والدنيا. اما الجماهير المتخلفة، التي كان الاسماعليون يسمونها : ”العميان“ و”الحمير“ و”عبدة الاوثان“ اشارة الى تقديس الحجر الاسود والكعبة، فلم يكن لها في حزبهم الاصطفائي مكان.

لم يعد اليوم شك في ان الانتماء للحزب الاسماعيلي كان معياره، على العموم، طبقي لا شعوبيا : ”عندما بدا التمايز العنصري بين العرب والموالي يزول شيئا فشيئا ويحل محله التمايز الاقتصادي بين اصحاب الامتيازات والمحرومين منها اصبح الشيعة الثوريون لا يمثلون الموالي وخدمهم بل اصبحوا لسان حال الطبقات المظلومة كلها. فاصبح زراد شتيو الطبقات العليا من الفرس سنة وبقوا على امتيازاتهم ، وحى من ظل من اعضائها على زراد شتيته فانه لم يكن اقل **حقدا** من العرب على المتطرفين، واعتنق فقراء عرب العراق وسوريا والبحرين الافكار الشعبوية المتطرفة“. (برنارد لويس : اصول الاسماعيلية).

لم تقف الايديولوجيا الاسماعيلية عند حدود نقد السنة، بل مدت السلاح نقدها الى الاسلام نفسه ثم الى جميع الاديان المنسوبة الى السماء<sup>5</sup>.

الهرطقات الاسماعيلية كانت اما ملحدة واما على مشارف الالحاد تقول بالحلول والتحلل : حلول الله في امام الزمان الثائر. في الانسان، و بالتحلل من طقوس الاسلام، من اوامره ونواهيه مستبدلة الوحي الالهي بنور العقل البشري، والمتعصب الديني بالتسامح الفلسفي، وقتل الجسد بالتحاريم الطقوسية بالعودة الى ما اسماء هيجل "حالة الشعوب السعيدة"، الشعوب اليونانية الوثنية التي كانت تمارس، بدون شعور بالالم. بدون ضمير معذب، كل ما يلذ للنفس ويميل اليه الطبع، واخيرا كشفت ان سيطرة الدين هي دين السيطرة.

يمكن تكثيف البرنامج الاسماعيلي على النقاط التالية :

. الغاء الملكية الخاصة لوسائل الانتاج (الارض ) وتوزيعها مجانا على الفلاحين الفقراء .  
. المساواة بين الرجل والمرأة مساواة كاملة. والغاء تعدد الزوجات.  
. الاطاحة بالنظام السائد الزمني والروحي : اقامة دولة علمانية على انقاض الدولة الاتوقراطية التي لا يتحقق الهدف النهائي لحركتهم الا بتقويضها.

لم يكن هذا البرنامج الثوري تعبيراً عن الحد الاقصى من مطالب الموالي، الفلاحين، البورجوازية الصغيرة الكادحة : (اهل الصناعات والحرف)<sup>6</sup> خدم المنازل، البدو العمال والانتيلجانسيا العقلانية وحسب بل كان استباقاً عبقرياً لاكثر من مطلب في المشروع الثوري الشامل للبروليتاريا العربية الحديثة.

من الطبيعي ان يكون الاسماعيليون هدفاً مفضلاً لاضطهاد الدولة الاسلامية الوحشي التي كانوا هاجسها الاول. فقد قتل احد امراء خراسان، في اقل من ثلاث شهور، : "منه الف من الباطنية (الاسماعيلية) وبنى برؤوسهم بالرى منارا اذن عليه المؤذنون" (البغدادى).

لم يكن موقفهم من الدين وحسب بل ان برنامجهم الاجتماعي هو الذي يوغر بالحقدهم عليهم والذعر منهم صدور الارستوقراطيات الحاكمة. نستشف ذلك من خلال ردود رجال الدين والمؤرخين السنة عليهم : "ان اضرار الاسماعيلية على الاسلام اعظم من اضرار اليهود والنصارى والمجوس. بل اعظم من مضرة الدهرية وسائر اصناف الكفرة، بل اعظم من ضرر الدجال الذي يظهر في آخر الزمان" (الفرق بين الفرق).

اقصى اتهام توجهه سلطة اتوقراطية لمارق هو الدهرية (الالحاد). فلماذا اعتبر الاسماعيلية اشد خطراً من الملحدين بل حتى من الدجال ... اذا لم يكن مشروعهم الثوري برمته لا الحادهم وحسب هو الذي يقض مضاجع الحكام وخدمهم من الفقهاء والمؤرخين. لقد وعوا ان التطرف الديني عند الشيعة الثورية يعكس تطرفها الاجتماعي.

\* \* \*

ليس هناك فوارق حاسمة من حيث التركيب الاجتماعي، الايديولوجيا او التنظيم لمراتبي للحزب القرمطي<sup>7</sup> او الموقف من الدين بين الفرع والاصل الاسماعيلي. لكن اهمية القرامطة تكمن في انهم شكلوا امتحاناً للايديولوجيا الاسماعيلية لانهم وصلوا الى السلطة من جهة ولانهم، من جهة اخرى، كانوا الجناح العربي الخالص للهرطقة الاسماعيلية.

تعزو الرجعية العربية منذ قرون جميع الهرطقات الثورية الى مؤامرة شعبية موتورة تريد ان تتأثر لقوميتها ودينها من العرب ودينهم. كما لو ان الوعي العربي مطعم بالفطرة ضد المشروع الثوري الشيوعي.

هيكل "الاهرام" احد و ابرز الذين ما زالوا يعزفون الى اليوم على هذا العود المتآكل. وعلى العموم تقوم دعاية الثورة المضادة العربية المعاصرة على غر غرة اسطوانة : "الافكار الهدامة مستوردة"، "الشيوعية والاحاد غريبان عن المزاج العربي" ..

هذه البضاعة الرديئة تبور عندما تواجه بواقعة القرامطة.

لأمر ما بدأت الاقلام الاجيرة، التي تنفق عليها السعودية والارامكو - نعم شركة الارامكو التي يهيمها جدا الدفاع عن الاسلام !-، منذ 1969 تتذكر القرامطة باللعنات، تسجالهم كما لو كانوا معاصرين، وتنبش عن مساوئهم في مزبلة "فضائح الباطنية" للغزالي. وتطبع على ورق مصقول وتبيع بسعر معقول، تعميمات ابن الجوزي ضدهم. لماذا لان الشبح القرمطي الذي لم يمت وانما اخفى مؤقتا، عاد اكثر عددا وعدة، ومن جديد بدا يدور حول آبار البترول وحول القصور الساهرة قلعا.

\* \* \*

فماذا فعلت الجمهورية القرمطية في النصف الثاني من القرن الثالث ؟

حطت من على كاهل الجماهير فرائض الاسلام وطقوسه. وسواء صحت القصيدة التالية التي ينسبها الخزرجي للقرامطة او كانت مجرد سجال ضدهم، فانها تعبير، عموما، عن وجهة المشروع القرمطي : الثورة عيد له بداية لكن ليست له نهاية :

خذي الدف يا هذي واضربي	وغنى هزاريك اثم اطربي
تولى نبي بني هاشم	وهذا نبي بني يعرب
لكل نبي مضى شرعة	وهذي شريعة هذا النبي:
فقد حط عنا فروض الصلاة	وحط الصيام ولم يتعب
اذا الناس صلوا فلا تنهضي	وان صاموا فكلي واشربي
ولا تطلبي السعي عند الصفا	ولا زورة القبر في يثرب
ولا تمنعي النفس من معرسين	من الاقربين او الاجنبي
وما الخمر الا كماء السماء	فقدست من مذهب

جوهر المشروع القرمطي، كجوهر كل مشروع ثوري : الانسان هو جدر الانسان نفسه. والانسان يصنع الدين والدين لا يصنع الانسان. ولهذا انكر "الرسل والشرائع كلها" (الفرق بين الفرق). تأول القرامطة : "لكل ركن من اركان الشريعة تأويلا يورث تضليلا، فزعموا ان معنى الصلاة موالاة امامهم، والحج زيارته وادمان خدمته، الصوم الامساك عن افشاء سرهم (...). وزعموا ان من عرف معنى العبادة سقط عنه فرضها" (الفرق...). قضوا ايضا على الحج وطقوسه اللاقتصادية حيث تتلف، لغير حكمة، كميات هائلة من الابل تصل احيانا الى خمسين الف بعير. والابل كانت بالنسبة للنشاط الانتاجي يومئذ، بمنزلة اسرع وسائل النقل اليوم، واللاعقلانية حيث ينحط الانسان الى ممارسة شعائر عبثية : كرمى الجمار ولثم الحجر ! ولهذا

اقاموا الحجر الاسود وقتلوا الحجيج سنة 312 اخذا بثأر اسراهم الذين فتك بهم المعتضد. ولما غزا ابو طاهر الكوفة في نفس العام حوّل مسجدها الى اصطبل لخيئه.

بعد ان نسفوا قائمة التحريم الدينية تركوا للانسان الذي استرد ذاته بعد ان ضيعها ان يقرر مصيره في حياته اليومية بغير حدود الا حدود حرية مماثلة في تقرير مصيرهم وحدود الممكن التاريخي الذي كان عصرئذ، لغياب التقدم التكنولوجي، ضيق الهامش.

استئصال الاوهام الدينية مشروط باستئصال الاوضاع الانسانية البائسة التي تحتاج الى الاوهام الدينية . لهذا مكنت السلطة القرمطية المجتمع كله من السيطرة على الثروة : الغت الخراج على الارض والضرائب التي كان يدفعها الملاك الصغار والعمال. كوّنت التعاونيات الزراعية والحرفية. حررت الاقنان ومنعت الرق، الذي يمنع في السعودية اسما الا في عام 1964، امتت التجارة الخارجية، الغت النقود الفضية والذهبية، ساوت المرأة بالرجل واعطتها الحق في العمل كضمانات مادية لاستقلالها الفعلي عن الرجل ومساواتها الحقيقية له. وباختصار فان "كل شيء، كما يقول الرحالة الفارسي ناصر خسرو الذي عاش بينهم عاما، كان مشاعا الا السيوف والاسلحة".

ما انجزته الثورة القرمطية العربية في القرن العاشر للميلاد لم تنجزه الثورات البيروقراطية العسكرية العربية في القرن العشرين !

واخيرا للتذكير، ان الذكرى قلما تنفع المنظمات البيروقراطية الراهنة التي تتناسب اهميتها الايدلوجية والعلمية عكسا مع عددها، نذكر ان الثوريين القرامطة اسسوا النقابات او على الاقل حسنوا تنظيمها، وتغلغلو فيها بنظريتهم ومنظريهم وجعلوا منها اداة لجمع عمال الامبراطورية العربية، لاعمال هذه العشيرة او تلك كما يفعل الماركسيون اللينينيون العرب اليوم، في قوة منظمة، واعية نظريا باهداف الحركة ومسلحة لقلب الخلافة الاسلامية وتشبيد مجتمع جديد من الطراز القرمطي الشيوعي على انقاضها.

\* \* \*

من الثورات الشعبية المسلحة التي لا بد من الاشارة اليها وان كانت صلتها بالاسماعيلية ليست واضحة بل، على الارجح، معدومة : الثورة الزنج (255-270 هـ) <sup>8</sup>.

كانت هذه الثورة حصيلة لقاء بين الانسانية المفكرة والانسانية المتألّمة، لقاء بين قيادة علي بن محمد، صاحب الزنج، الذي كان حساسا لبؤس الجماهير كما كان فاقدا للامل في العثور له على مكان - هنا اذا افترضنا انه فكر في الامر- جدير بطموحه في قلب النظام الرسمي. على ان القليل الذي نقله الينا المهرجون الرسميون من اقواله واشعاره يدل على انه كان ثوريا راديكاليا يجد تحقيق ذاته في السير على رؤوس الملوك :

وانا لتصبح اسيافنا اذا ما انتضينا ليوم سفوك،  
منابرهن بطون الاكف واغماذهن رؤوس الملوك.

وفي دق اعناق مضطهدي العبيد والعمال. ولقاء بين جماهير الزنوج، العمال الزراعيين، غلمان الدباسين والتمارين، خدم المنازل وجماهير البدو، التي يئست من النظام وملت حياة العبيد.

كل هذه الجموع كانت خارج دائرة المجتمع الرسمي، كانت لا فقط بدون املاك وبدون امتيازات

بل كانت محرومة حتى من لذتي البطن والفرج. كان الزنج ياكلون سويق الشعير ومحرومين جنسيا : "لم يكن الزنج ذوي زوجات واولاد بل كانوا، على هيئة الشطار، عزابا". (تاريخ ابن ابي الحديد).

اذن لم يكن يشدهم الى المجتمع القائم اي رابطة الا رابطة اثقال الحديد التي كانت توضع في ارجلهم لكي لا يفروا من جحيم العمل في كسح سباخ البصرة.

اي غرابة، في مثل هذه الشروط، ان يكون الزنج، خلال المعارك، قد اكلوا من لحوم سادتهم واعدائهم !

اذا كان الزنج هم جمهور الثورة تسمت باسمهم، فقد كان الى جانبهم، فضلا عن الاصناف المذكورة اعلاه، المالكون الصغار من العرب الذين انحطوا، تحت اعباء الضرائب وبسبب الالغاء<sup>9</sup> الى درك اجراء شبه اقنان على ارضهم ذاتها.

من الوارد، والمؤرخون الرسميون جازمون، ان علي بن محمد قائد الثورة كان ملحدا او حلوليا. لكنه مع ذلك استخدم الدين تبريرا لتحريض الزوج والعييد على الفرار من سادتهم والالتحاق بثورته، معلنا لهم ان الله وضع نهاية للرق بقوله : "ان الله قد اشترى من المؤمنين انفسهم واموالهم بان لهم الجنة يقاتلون في سبيل الله فيقتلون ويُقتلون وعدا عليه حقا في التوراة والانجيل..." وكتب الاية على لواء حريري. لا شئ في هذه الاية يفيد انهاء الرق. والاسلام، كما هو معروف. لم يبلغ الرق. وعلي بن محمد المثقف الالاعي لا يجهل ذلك. لهذا أول الاية "تأويلا يورث تضليلا" على النحو التالي : "بأن المؤمنين، وقد اشترى انفسهم، لم يعودوا بعد عرضة للرق والعبودية". "وهي لعبة ماهرة منه، اذ تمكنه على اساس الاية ان يقول ان الزنج واسيادهم سواسية"<sup>10</sup>.

استخدم الدين ايضا لتبرير ضرب اعناق كبار الملاك العقاريين. فقد كان يقرأ على مسمع اسراة منهم حيثيات حكم اعدامهم : "قد اردت ان اضرب اعناقكم لما كنتم تأتون لهؤلاء الغلمان الذين استضعفتموهم، وفعلتم بهم ما حرم الله عليكم ان تفعلوه بهم. وجعلتم عليهم مالا يطيقون" (الطبرى).

لكن مع ذلك اصطدمت جماهير الزنج، التي لا شك انها كانت في مجموعها واقعة تحت اسر الاعتقاد الغيبي، بالدين. فالمؤرخ الملطي يروي ان الزنج احرقوا المصاحف التي كانت تقائلهم مع سيوف سادتهم. وابن الرومي يشير في قصيدته الطويلة الى ان الزنج انتهكوا محارم الاسلام :

اي نوم بعدما انتهك الزنج محارم الاسلام

\* \* \*

هناك معاناة تكاد تعد في عداد الثوابت التاريخية لتواترها في كل العصور : حتمية اصطدام الثورة، حتى تلك التي تنطلق في احتجاجها بصدق من الدين، بالدين. عموما احتجاج عن البؤس وبييرير له ذات الوقت. الا انه ما ان يتجسد في مؤسسات حتى يتضاءل ثم يضمحل صوت الاحتجاج على البؤس لصالح تبريره ومحاولة ادخاله الى سريرة البائسين لكي يحملوا اغلالهم من الداخل.

الثورة التي تريد، بماهيتها، وضع الحياة اليومية على قدميها، لا تستطيع الا ان تشتبك مع الدين الذي يبرر الوضع الراهن، هذا الوضع الذي جعلت الثورة من قلبه مبرر انفجارها.

يقر الدين بضرورة وجود المراتب والطبقات العليا والسفلى "وجعلنا بعضكم فوق بعض درجات" وبضرورة الفوارق الطبقيّة: "وفضلنا بعضكم على بعض في الرزق". والبديل الوحيد الذي يقدمه للدرجات الدنيا والمفضولين في الرزق هو حث الاغنياء والحكام على الاحسان اليهم والرفق بهم. بينما الهدف النهائي للثورة الاشتراكية هو انتهاء استغلال الانسان للانسان وحكم طبقة لاخرى.

والدين، اخيرا، يعلم الطبقات المسحوقة اخلاقيات العبيد بحثها على الاذعان والطاعة: اطيعوا الله واطيعوا الرسول واولي الامر منكم... من ضربك على خدك الايسر فادر له خدك الايمن... لتلقي مزيدا من الصفعات. والثورة تمرد على شروط واخلاق العبيد. ومن ثم فهي تقتص من الظلم والظالمين الآن وهنا وفورا. وهكذا تجد نفسها، عن شعور منها او عن غير شعور، في صدام مع الدين ورجاله. لانها برفضها ارجاء الحساب ليوم الحساب، برفضها الوعد والعزاء الدينيين ترفض وظيفة الدين وجوهره نفسه.

وللاسلام خصوصية، بين اخرى، تجعل اصطدامه بالثورات الراديكالية لا مفر منه: ذلك انه كان منذ ظهوره دنيا ودولة بينما في المسيحية الاصلية الكنيسة مفصولة عن الدولة. وهكذا فالمروق على الدولة، في الاسلام، مروق على الدين. والكفر بالخليفة كفر بالله. ولهذا كتب الموفق الى قائد ثورة الزنج يدعوه "الى التوبة والانابة الى الله" اي اليه. لان سلطة الخليفة من سلطة الله. وليس هناك حدود فاضلة بين الديني والديني فقصر الخلفة له حرمة المسجد الحرام. "الملوك تحتل كل شئ الا ثلاث خلال: افشاء السر، والتعرض للحرم، والقدرح في الملك" (الخليفة المنصور).

فالدين، مفتاح السماء الشرقية، ليس، مثلما هو في الغرب المسيحي، انعكاسا للتنظيم المراتبي، لتبرير بطش الدولة المركزية، لاستغلال واغتصاب وقت وابداعية الطبقات المنتجة وحسب. بل هو ايضا وخصوصا شرط انتظام المراتب واستمرار الاستغلال.

الدين يضمن الدولة بسطان قداسته، والدولة تضمن الدين بسطان سيفها.

وهكذا فما ان يمتشق الثائرون السيوف في وجه الدولة الارتوقراطية حتى يتحررون، بالنصف على الاقل من دينها، لان سيطرتها تصبح امام وعيهم، مهما كان جزيئا، بدون اسرار. فهي، مجرد ما ان ثاروا عليها لم تعد تسيطر عليهم بقوة السماء بل بقوة السيف. والسيف بالسيف يقرع!

هكذا نفهم سر اصطدام ثورات العامة التي كانت على العموم رغم بعض الفلتات الجريئة، واقعة تحت اسر الاعتقاد الغيبي، بالدولة وبالدين. لكن هذا الاصطدام العفوي، يظل، ما لم يصبح واعيا ومنظما، جزيئا وقابلا بالتالي للاسترداد.

في الواقع لم تكن شروط العصور الوسطى تسمح لسواد الشعب بوعي الخدعة الدينية. لم يكن التقدم العلمي والاكتشافات شفافة، مفهومة او قابلة للفهم. لتخيل المستحيل: جماهير الزنج تبعث اليوم في نفس البصرة لتشاهد القليل فيها من عجائب التكنولوجيا التي تخطت عمليا اجرا ما كان يستطيع ساحر جري ان يقدم عليه في الوهم: ترى ماذا سيبقى من اعتقاداتهم الغيبية؟ القليل!

اذن لم يكن مستطاعا في شروط ذلك العصر الذي كان الدين "نظريته الشاملة، موجزه

الموسوعي، منطقه في شكله الشعبي (... سلواه وتبرير) (ماركس)، ودرجة تقدمه المادي ان تكون الايديولوجيا الثورية في شكل دنيوي لا ديني لانها لم تكن تستطيع التغلغل في الوعي الشعبي البسيط والسريع التصديق الا اذا تجلت له تحت شكل ديني.

لذلك اخترعت القيادات الثورية دينا جديدا : (الايمان برسالة امام الزمان الثائر بدلا من الايمان برسالة محمد)، يدفع العامة الى الثورة على صانعي يؤسهم في مقابل دين الدولة المعادية الذي يدعوهم الى الاذعان وارجاء العقاب والثواب الى يوم الحساب !

لكن الايديولوجيا الثورية كانت تخفي، تحت الفاظ الموسوعة الدينية للعصر و التأويل الباطني للاسلام، هرطقها العميقة التي تجلت، رغم الفاظ التقية، في فكرها المتحرر، في تأويلها ونبذها لشعائر الدين الخارجية وفي ممارساتها الثورية التي لم تكن تتقيد كثيرا ودائما بالقناع الديني : ممارسة القرامطة وممارسة قائد الحشاشين العظيم الحسن الصباح بقلمه الموت عندما أعلن "يوم القيامة"<sup>11</sup> اي الغاء الشريعة الاسلامية : "الغاء الحسن الصباح للشريعة الاسلامية كان موجها ضد العناصر الاقطاعية في الارض الاسماعيلية الذين كانوا مخلصين للاسلام السني ومعادين للمساواة الاجتماعية" (برنارد لويس : اصول الاسماعيلية).

لم تكن القيادات الثورية، الا نادرا، تعلن الحادها الصريح ومفهومها المادي للعالم الا لكوادر الحزب ومراتبه العليا التي آخرها الاحاد.

كانت، للتمويه على العدو، تستعمل التقية، اي التمويه. وتستخدم التأويل استدراجا لجماهير العوام نحو المادية المقنعة بطلاء مثالي، مستخدمة احيانا، كما في ثورة الزنج، سلاح الاسلام ضد الارستوقراطية. لكن الارستوقراطية، بمساعدة رجال دينها، استخدمت بفاعلية اكثر سلاح الاسلام المتكيف والقابل للتكيف مع الانظمة الجلادة، استخدمته لسحق الثورة، حرق دعائها، جماهيرها وقادتها وتقطيع ايديهم وارجلهم من خلاف، كما فعل المعتمد بيحيى بن محمد البحراني احد قادة ثورة الزنج اذ : "ضرب بين يديه مئة سوط ثم قطعت يداه ورجلاه من خلاف، ثم خبط بالسيوف ثم ذبح ثم احرق" (الطبري).

\* \* \*

تحريض الدولة وائمة مساجدها ضد الاحاد القيادات الثورية كان واسع النطاق. وبعض ممارسات هذه القيادات كانت، بكامل الوضوح، لا تعبر عن ايمان صادق بالاسلام. ومع ذلك فهذه القيادات كانت جماهيرية. فهل كانت هناك فئات، شكلت قاعدة ثابتة لهذه الثورات، "يستهوينا، على حد قول الغزالي، الاحاد" (فضائح الباطنية) ؟.

نعم على رأس هذه الفئات نجد الذين لم يقبلوا الاسلام الا بحد السيف : "الاعراب أشد كفرا ونفاقا" (آية). لان طقوسه وفروضه من زكاة وحج وطاعة اولي الامر لم تكن تتجاوب مع تقاليدهم ومصالحهم. ولهذا ما ان مات محمد حتى ارتدت قبائل البحرين التي قاتلها ابو بكر (حروب الردة). ولما ظهرت الدعوة القرظية المضادة للطقوس تتجاوب معها اعراب وفلاحو البحرين لانهم تعرفوا فيها على مطالبهم.

اما الفئة الاخرى التي استهوينا الاحاد فهي، والكلمة للغزالي، اهل الصناعات والحرف والطبقات العاملة، وهؤلاء كانوا منتشرين في الكوفة، عرين الحركات الثورية. بعضهم لم يكن يعتنق الاسلام عن قناعة داخلية، عن حاجة للتعزى، فلقد كان يجد في عقائده واساطيره، التي قمعها الاسلام، ملجأ اقوى للعزاء والسلوى ومحرضا. اما اعتناقه للدين الرسمي او تخليه عنه

فكان يتم تبعا لمصالحه الفعلية : ”والعاصي الجاهل يظن ان التلبيس والاديان والعقائد مثل المواصلات والعقود الاختيارية فيصلها مرة بحكم المصلحة ويقطعها اخرى“، (الرد على فضائح الباطنية). والبعض الآخر كان قادرا على اكتشاف الخدعة الدينية بنفسه وهو ما شكّل معسكر المتقنين النقيدين. يشير المعري الى انقسام الناس في عصره الى معسكرين : عقلاء ملحدون وسذج متدينون : اثنان اهل الارض : ذو عقل بلا دين ... وآخر دين لا عقل له. وغير محتمل ان لا يكون للمعري، وابن الراوندي، واخوان الصفا قراء ومعجبون بين اهل الصناعات والحرف والعمال الواعين. وكواد الحزب الاسماعيلي آتية منهم. لهذا يؤكد ابن الجوزي، وكان محرّضا ديماغوجيا، ضد الالحاد، سهولة انقياد العامة للزندقة والمبادئ الالحادية، شاكيا من انتشار الزندقة ومن تحريض الباطنية على ”سلب الاموال ونهبها“ ولم يكن يجهل ان ذلك تنمة ضرورية للاطاحة بحارسها السماوي.

استهواء الالحاد لهذه الفئة وسواها واقعة لا شك فيها. لكن مما لا شك فيه ايضا انه لم يكن يستهوي الا القطاعات الاكثر استنارة من هذه الفئات. اما الجماهير الاوسع فقد ظلت مشطورة بين قناعاتها الدينية وممارساتها الثورية ضد الدولة وبالتالي ضد دينها. لان هذه الجماهير لم تكن قادرة على ان تكون امام نفسها. لماذا ؟

من جهة، كانت عزلة الفلاحين الناتجة عن تشتتهم في اقطاعات الملاكين وضيق افقهم الناتج عن انحطاط مستواهم الثقافي الى الصفر، يمنعانهم من اتخاذ موقف ثوري مستقل عن مقف الدعاة الثوريين من الاسماعيليين او غيرهم. كما ان القمع الهمجى للدولة الشريفة يضطر المعارضة الى السرية والباطنية، وهما تعريان ”الفلاحين الذين انتشرت بينهم الامية والشعورية“ (الطبري)، بالاقتناع بضرورة مفسر لاسرار حياتهم ومحقق لاحلامهم في التسوية وعودة التأخي الاصلي المفقود. لهذا كان الفلاحون دائما، كما لاحظ هيجل، يعطون ولاءهم للزعيم لا للفكرة.

ومن جهة اخرى لم تكن هذه الجماهير بقادرة في شروط مجتمع كانت الطبيعة المجهولة تنظم انتاجه والطبقات الغاشمة تقتسم موارده، على حل الغازه الا بمساعدة مفتاح السماء (الدين) الذي لم يكن بوسع فلاح مكبل ان يهندي لبديل ارضي له. لكن الامام المهدي يستطيع ذلك بالتاكيد !

باختصار عجز الجماهير عن انجاب قاداتها من داخل صفوفها دفعها الى استيرادهم من الثوريين الاسماعيليين المحترفين. اذا كان قاداتها ”مخلصوها“ قد جاءوا اليها من خارجها، فان المنقذ الاعلى الدائم لا بد ان يكون خارجها اي خارج البشر : إلاها تتعرف عليه وتستعين من خلال امام الزمان المعصوم، الذي لا يقهر لانه لا يموت، وانما يغيب ليعود اليها كطائر السنونو مع بشائر كل ربيع : لم يكن هذا الامام المعصوم الذي لا يموت الا تعبيرا ايدولوجيا عن ثورتها المعصومة التي لا تموت، وانما تغيب بعد كل هزيمة لتعود من جديد من اجل تحقيق وعدّها : ملء العالم عدلا...

هذا التفسير المادي، الذي ينسف مئات الصفحات المثالية التي كتبها المستشرقون والعرب حول مصدر فكرة الامام في الثورات الشعبية في ظل الاسلام، نجد عليه دليلا تاريخيا : ظهور فكرة المهدي لأول مرة في الكوفة حيث اندلعت ثورة الموالي (66) بقيادة المختار الفعلية ولحساب وبقيادة محمد ابن الحنفية الايدولوجية. انهزمت الثورة، جزّ رأس المختار وتوفي محمد بن الحنفية. لكن الجماهير رفضت الاستسلام لهذه الهزائم الثلاث. واعلنت ان محمدا لم يموت وانما غاب فقط ليعود مرة اخرى ليملا الارض عدلا ما ملئت جورا. وفعلا عاد في عشرات الثورات اللاحقة، وما زال سيعود في المرة الاخيرة في الثورة الاممية القادمة.

كما كانت فكرة المهدي هي المحرك لمعظم الثورات الشيوعية البدائية في تاريخنا، كانت فكرة الشيوعية محركاً لنضال جماهير الفلاحين في الثورات البيروقراطية الماركسية اللينينية المعاصرة.

وكما لم يف الامام المهدي بوعد، حتى بعد ان تحققت الدولة الفاطمية التي تنكرت، شأن كل دولة، لوعدھا. كذلك لم يتحقق الوعد الشيوعي، الذي اختزل الى مثل اعلى يطلب فلا يدرك، بعد تحقيق الثورات البيروقراطية التي اعادت للفلاحين، الذين حولتهم الى عمال، انتاج نفس الشروط التي ثاروا عليها : البؤس الكمي والنوعي والاستبداد

\* \* \*

نادرون جداً، أولئك الذين اكتشفوا، في ليل تلك العصور، ان الامام ليس خارج الارض بل عليها، وليس خارج الانسان بل في رأسه، وعلى رأسهم ملك الفلسفة العربية : ابو العلاء المعري : كذب الظن، لا امام سوى العقل، مشير في صبحه والمساء. وليس بأقل منهم ندره، في ليل العصر الحديث، الثوريون الذين اكدوا واقع ان الاشتراكية لن تنزل لأرض الطبقة العاملة من سماء قيادة أئمة من خارجها، بل هي ستنبع من فعلها الواعي ومن قيادتها لنفسها عبر مجالسها.

كان المهدي المنتظر اسطورة - وككل اسطورة يعبر عن واقع فعلي - معبئة للجماهير الفلاحية وانصاف العبيد ... لكنها، في شروط الحقبة، اسطورة لعبت دوراً ثورياً لأنها شجعت على محاربة عالم غبي ومستبد، لم تكن شروط تغييره الحاسم قد توفرت بعد.

اما المهدي الشيوعي المنتظر من الاحزاب البيروقراطية فهو اسطورة كانت معبئة، لكنها انتهت مضادة للثورة. لأنها، بين مآخذ اخرى، عرقلة للامكانية الفعلية الراهنة لتقويض العالم القديم، لأنها تشويه للوعي وتخليف له. والوعي بحد ذاته قوة انتاج ثورية "الفكرة عندما تتغلغل في الجماهير تصبح قوة مادية" (ماركس). واكثر لأنها تجديد زائف لشباب العالم القديم ومحولة، نجحت مؤقتاً في اطالة عمره.

\* \* \*

بالتوازي مع ثورات العامة، التي نفذت الانظمة القائمة بالسيف، كان هناك مفكرون عقلانيون او ماديون انتقدوا هذه الانظمة باللسان : احدهم الفقيه الثائر غيلان الدمشقي<sup>12</sup> الذي حارب اديولوجيا الجبرية، اديولوجيا النظام، معترضا عليها بقوله المأثور الذي تناقلته السنة العامة : "ايها الناس ما اتاكم من خير فمن الله وما اتاكم من شر فمن بني امية".

خوفاً من ثورة شعبية، وكمحاوله لامتناس نعمة العامة التي كان حساساً لها، استجاب عمر بن عبد العزيز، الذي كان كاسلافه جبرياً، لمطالب غيلان الدمشقي القدرى، ببيع متاع الخلفاء الامويين في المزاد العلني. ووسط تكبير سكان دمشق تقدم غيلان بنفسه الى نفائس القصور وهو ينادي في اهل دمشق : "تعالوا الى متاع الخونة، تعالوا الى متاع الظلمة (...). من يلومني ممن يزعم ان هؤلاء كانوا أئمة هدى، وهذا متاعهم والناس يموتون من الجوع!".

والمعري الذي وضع اصبعه على الجرح عندما اكتشف في الدين سلاحا تقهر الطبقات المظلومة وترويض وعيها :

افيقوا، افيقوا يا غواة فإنما ديانتم مكر من القدماء  
ارادوا بها جمع الحطام فادركوا وماتوا وبادت سنة اللؤماء

.....  
اذا رجع اللبيب الى حجاه تهاون بالشرائع وازدراها

.....  
قد ترامت الى الفساد البرايا واستوت في الضلالة الاديان

وابن الراوندي الذي قال : ”اذا كان الدين متققا مع العقل فلا حاجة لنا به، واذا كان مختلفا مع العقل فنحن نرفضه“. واخوان الصفاء وجميع منظري الباطنية الثورية. هؤلاء شكوا - يجب اليوم ان نتذكر ذلك - نواة ذاكرتنا العقلانية والمادية في العصور الوسطى من تاريخنا.

\* \* \*

على الثوريين الشباب، الذين انقذوا وعيهم من تشويه التجهيلية الستالينية، ان يكونوا المنفذين المتحمسين لنصيحة انجلس للشيوعيين في المانيا، بترجمة آثار مفكري عصر الانوار، الذين حاربوا، مستعملين سلاح الفضح، تحالف الكنيسة والاقطاع. ان يترجموا، هم ايضا، ديرو، و آثار الكاهن الملحد جان مسليبي الذي كتب (1774) : ”لن تكون الانسانية سعيدة حتى تشنق آخر اقطاعي باحشاء آخر كاهن“<sup>13</sup>، وان يترجموا آثار هيجل، فوريي، فيورباخ وأحرى آثار ماركس وانجلس حول الدين. اما نصوص لينين فقد تكفل بها الرفيق البروليتاري محمد كبه. وان يستنطقوا زيادة على ذلك اللحظات الثورية التي اضاءت ليل تاريخنا الذي ينبغي ان نعيد كتابته من جديد، على اساس جديد ولهدف جديد : من اجل التحريض الثوري لا من اجل ارشيف التاريخ والاضاء الفضول الاكاديمي. وان يحطموا مؤامرة الصمت المضروبة على المعري وكل الفلاسفة العقلانيين والملحدين. لكن يجب ان لا ينسوا ان الاطاحة الحاسمة بالعالم القديم وفضلاته لن تكون محصلة النقد النظري لتبريره الديني والمشهدي بل ايضا وخصوصا : ”بالطاحة العملية بالعلاقات الاجتماعية العينية التي انتجت الخرافات المثالية. ليس النقد هو القوة القائدة للتاريخ بل الثورة“ (الادبولوجيا الالمانية).

\* \* \*

العالم الوحيد تقريبا الذي مازال يتصرف بعقلية محاكم التفتيش في مسألة الدين وبعقلية الاقطاع في مسألتى الشرف والتأثر، هو العالم العربي.

لقد احتلت منه دولة اسرائيل<sup>14</sup> في اقل من 20 عاما، وبثلاث حروب ظافرة، اكثر من 84 000 كلم مربع ومازالت - اذا شاءت - قادرة على احتلال المزيد. لكن هذا العالم المعذب، والراضي بحاله، مازال، بالرغم من كل ذلك، يعتبر العرض اولى بالصيانة من الارض، ومازال يضع شرف رجاله في فروج نسائه، ومازال لا يتقن من انواع التأثر الا اكثرها انحطاطا : العشائري، ومازال، في عصر بات فيه العلم وسيلة مباشرة من وسائل الانتاج، يعتبر الدين حكما اعلى في

شؤون الفكر. والاكثر اثاره لمشاعر الفضيحة : انه مازال يعتبر اخضاع الظاهرة الدينية للنقد التاريخي جريمة تستوجب الملاحقة والسجون !

\* \* \*

في هذا المضمار، الدولة العربية المعاصرة ورثة شرعية لتقاليد العصور الوسيطة للاستبداد العربي : امر مروان بن عبد الملك واليه، خالد بن عبد الله القسري باعتقال وقتل الداعية الجعد بن درهم لانه كان يقول بخلق القرآن. نفذ الوالي. لكن كيف ؟ اوثق الجعد كتافا وحمله الى باب المسجد وارتقى المنبر خطيبا : ”ايها الناس، انصرفوا وضحوا تقبل الله منكم. اما انا فاني اريد ان اضحي اليوم بالمشرك الضال الجعد بن درهم لانه يقول ما كلم الله موسى تكليما، ولا اتخذ الله ابراهيم خليلا، فتعالى الله عما يقول الجعد علوا كبيرا. ثم تقدم من ضحيته : الانسان - الخروف، الجعد بن درهم فبسمل وحمدل ثم دبجه.

\* \* \*

دالت دولة بني أمية. وجاءت دولة بني العباس. واجبرت الناس على القول بخلق القرآن أمره بقتل كل من لا ينصاع لاوامر الدولة في شؤون الدين والدنيا. فتولى الخليفة - الجلاد الوثائق بالله - بنفسه قتل وصلب الفقيه احمد بن نصر بسامرا وأمر بحمل رأسه الى بغداد حيث علق في بابها الشرقي وعليه لافتة : هذا رأس المشرك الضال احمد بن نصر ممن قتلته الله على يد عبد الله، هارون، الامام الوثائق بالله، امير المؤمنين بعد ان اقام عليه الحجة في خلق القرآن<sup>15</sup>.

لكن كيف اقام عليه الحجة ؟ لنستمع الى رواية مؤرخ رسمي، الطبري :

الخليفة لاحمد بن نصر : ماذا تقول في القرآن ؟  
احمد بن نصر : هو كلام الله. ولم يزد على ذلك، كما لاحظ الطبري.  
الخليفة : ماذا تقول في ربك، اتراه يوم القيامة ؟  
احمد بن نصر : يا امير المؤمنين جاءت الاخبار عن رسول الله انه قال : ”ترون ربكم يوم القيامة“ فنحن على الخبر.  
وبعد جدال قصير اتى فقهاء الدولة، الجالسين بين يدي الخليفة، بقتل احمد بن نصر لانه ”كافر بالله“<sup>16</sup> فقام الخليفة وقتله.

هكذا اقيمت الحجة على الفقيه الشهيد ! وهظذا ما تزال تقام !

\* \* \*

قتل احمد بن نصر، وقبله وبعده عشرات، وصلب، رغم ان الصلب ممنوع في القرآن، لانه لم يقتنع بموضوعه خلق القرآن. تماما كما ذبح الجعد بن درهم، وقبله وبعده عشرات. لانه اقتنع بموضوعه خلق القرآن. لان الدولة العربية الاتوقراطية دائما على حق ورعاياها دائما من محنة الى محنة ومن طاغية الى طاغية منذ 14 قرنا !.

\* \* \*

في غمرة هذا الليل الطويل الذي خيم على كل تاريخنا، لم يعرف العالم العربي الا لحظة نادرة من الديمقراطية الشيوعية في الجمهورية القرمطية.

كيف تصرف اول جمهورية عربية شعبية حقا حيال قضية الدين ؟ لنستمع الى الرحالة ناصر خسرو الذي زار الحساء القرمطية وترك لنا شهادة حية في كتابه **سفرنامه** :

”كان الحاكم السابق ابو سعيد الجنابي قد الغى الصيام والصلاة. والاهالي لا يصلون ولا يصومون (...) ولما توفي ابو سعيد انتقلت السلطة الى مجلس شورى مؤلف من 6 من تلاميذه حكموا بالعدل والانصاف (...) وليس في مدينة الاحساء مسجد ولا صلوات ولا خطب الجمعة او العيد. واهل البلاد اذا كانوا لا يصلون فهم لا يمنعون احدا من الصلاة<sup>17</sup>. اما الحجاج السنة فقد بنوا لانفسهم مسجدا على حسابهم“.

تماما كما فعلت كومونة باريس في 1871 التي ارسلت ”رجال الدين الى هدوء الادييرة ليعيشوا فيها على صدقات المؤمنين، كما كان الامر على عهد اسلافهم الرسل“ (ماركس).

\* \* \*

حدث هذا قبل تسعة قرون. وكما يكون الانسلن العربي المعاصر سعيدا لو يجد دولة عربية واحدة جمهورية او ملكية، اشتراكية او رأسمالية، تتسامح مع الملحدين وتحريضهم المكتوب بنفس درجة تسامح الجمهورية القرمطية مع المؤمنين ودعايتهم، ممسكة عن التخل **البوليسي** في نقاش فكري بين تيارين تاريخيين تصارع منذ اكثر من خمسة آلاف عام ولا يزالان.

باريس 7-8-1972

هوامش :

- 1- التسمية لا تنطبق على مضمون هرطقتهم، وهي من اختراع اعدائهم. والصحيح تسميتهم حزب الاختيار في مقابل حزب الجبر (الجبرية)
- 2- لن نقيم هنا توازنا تاريخيا بين هزائم الهرطقات الاصلاحية ونمو الهرطقات الثورية. حسبنا ان نشير الى انه مثلا بانتصار الاشعرية على المعتزلة في عهد المتوكل، ثم تكوين مدارس الدولة السنية في عهد نظام الملك والسلاجقة ببغداد، كرد على الازهر الفاطمي من جهة ولتخريج بيروقراطية ومفكرين مطواعين للدولة ومنسجمين مع اديولوجيتها السنية من جهة اخرى، اتكلت الدولة السنية مباشرة على نفسها لترويج او هامها عن نفسها. وهكذا وجهت طعنة قاتلة للحضارة اليونانية وتأثيراتها على المعتزلة والهرطقات العقلانية. فقد احتكر الفقهاء من امثال الغزالي، صديق مظالم الملك ومستشاره، الغزالي الذي قال : ”يجوز للحبل ان يصبح

حصانا باذن الله تعالى“ **الثقافة الفكرية**. واكتسبت الثقافة نفسها طابعا لاهوتيا مدمرا. وغدت العلوم كلها فروعاً موضوعية تحت وصاية الفقه الديني. وهكذا حتمت الدولة السنية الانتصار الحاسم للدين على الفلسفة في ساحة الصراع الشرعي légale ولم يبق على الفلسفة النقدية المهزومة الا ان تلجئ الى السرية، الى اخوان الصفاء، او ان تحمل السلاح وتلتحق بجبال الاسماعيلية وقلاعها حيث سيأخذ العقل تأره من النقل وستقتص الفلسفة لنفسها من الدين. لكن لفترة تاريخية عابرة !

**3-** سمي الاسماعيليون بالبطنية لانهم من جهة يقولون ”ان لكل ظاهر باطنا“ و”لكل تنزيل تأويل“ ولانهم، من جهة اخرى، حزب سري يكتم اسماء زعمائه، تنظيماته وبعض اهدافه. فبعد ان انتصر العباسيون وامتلكوا الدولة، (الرجال، والمال والسلاح) واداروا ظهورهم وسيوفهم لحلفائهم وانباء عمهم : العلويين، لم يبق امام هؤلاء، وهم قلة رجالا، مالا وسلاحا، الا الاعتماد اساسا على سلاح الايديولوجيا، قوة العزيمة وبراعة الدعاة (المحرضين).

**4-** ما ان تجسدت الاسماعيلية الفاطمية الثورية في دولة مصر حتى اصبحت ضد نفسها اي ضد الثورة. فقد عدلت عن محاربة المؤسسات الاسلامية. واصبح هدفها ليس تحقيق برنامجها المعلن بل المحافظة على دواتها، وعلى الارستوقراطية الادارية، الدينية والعسكرة التي كانت على رأسها. لم تكن ثورة الجناح المتطرف من الحزب القرمطي على الفاطميين ومحاربتهم لهم الا احتجاجا مشروعا على هذه الردة البيروقراطية، على تشكل نموذج الدولة السنية الرجعي في صلب الدولة الفاطمية التي كانت من حيث المبدأ اداة نفيه : انفصال النظرية عن الممارسة، خيبة الجماهير التي لم تتغير شروط حياتها، سحب الاجنحة الثورية الاسماعيلية مساندها للفاطميين وعسكرة الحكم تدريجيا الى ان تحول، خاصة بعد موت الحاكم بأمر الله، الى ديكتاتورية اتوقراطية عسكرية ادى الى سقوط الحكم الفاطمي، بعد قرنين من السيادة (497-567)، على يد صلاح الدين الايوبي لصالح السنة الحاكمة في بغداد.

**5-** كتب البغدادي : ”والذي يصح عندي من دين الباطنية انهم دهرية زنادقة يقولون بقدوم العالم، وينكرون الرسل والشرائع كلها لميلهم الى استباحة ما يميل اليه الطبع“.

**6-** ”واما حرف اهل الصناعات، فغير فاضلة من الاقوات، ولا نافعة في جميع الاوقات ومعظمها معصوب بشيبيبة الحياة“. (مقامات الحريري).

**7-** زعيم الحركة القرمطية الفعلي : حمدان القرمطي كان عاملا زراعيًا. ابو سعيد الجنابي الذي سيصبح اول رئيس لعقدانية (مجلس الثورة) الجمهورية القرمطية كان من اصل اجتماعي متواضع، والحسين بن سنبر كان شيخ قبيلة عربية من قبائل البحرين.

**8-** للاطلاع على وقائع هذه الثورة، اسبابها واسباب اخفاقها على القارئ الثوري ان يعود الى كتابين هامين معاصرين : ثورة الزنج (احمد العلي) وثورة الزنج (فيصل السمراي) - وهو نافذ - والرجوع الى تاريخ الطبري، المسعودي والمقدسي وابن ابي الحديد خاصة.

**9-** الاجاء : التجاء الملاك الصغار لتسجيل فتات اراضيهم باسم الملاك الكبار المتنفذين لدى الارستوقراطية الحاكمة لحماية انفسهم من عسف الجباة. لكنهم كانوا كالمستجير من الرمضاء بالنار، فالملاك الكبار ستولون فعلا على الارض، ويحولون ملاكها الى اجراء. وحين قامت ثورة الزنج كانت اراضي البصرة في حيازة عدد قليل من الملاك كان معظمهم في نفس الوقت من التجار المرابين.

**10-** ”ثورة الزنج وقائدها علي بن محمد“ (تأليف : احمد علي. دار الحياة). مطبعة دار الحياة - بيروت

**11-** اعلن الاسماعيلي العبقرى، قائد الحشيشية، كما كانوا يسمون في سوريا على عهد الحروب الصليبية : الحسن الصباح في سنة 559 ”يوم القيامة“ وان ”التنزيل لا يؤخذ منذ الان الا بتأويله“.

**12-** قتله هشام بن عبد الملك بتهمة الالحاد وافتى له بقتله الفقيه الاوزاعي.

**13-** استلهم هذا الشاعر الناري الشاعر بوشكين عندما كتب : ”لن تكون روسيا سعيدة الا اذا شفقنا آخر قيصر بأحشاء آخر كاهن“.

واستلهمته ثورة ايار 68 التي انتقلت من شفق الكهنة القدماي الى شفق الكهنة الجدد : الرأسماليين والبيروقراطيين : ”لن تكون الانسانية سعيدة الا اذا شفقنا آخر رأسمالي بأحشاء آخر

